شرع من قبلنا

اسم الكتاب: **شرع من قبلنا**

اسم المؤلف: **حسني محمد العطار**

مؤسسة نافذ للبحث والطباعة والنشر

الطبعة: **الأولى 1443هـ-2021م**

تنسيق الكتاب و تصميم الغلاف: **د. نافذ الجعب**

شرع من قبلنا

الأستاذ
حسـني محمد العطار

غزة – فلسطين

1433هـ - 2021م

مطبعة نافذ
0599920845

إهداء

إلى روح كلٍ من

جدي صاحب الفضيلة الشيخ

أحمد عبد الرحيم العطار

وروح والدي صاحب الفضل العظيم

محمد أحمد العطار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾

سورة الشورى (**14**)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، جعل القرآن خاتم هدي السماء إلى أهل الأرض، وجعل الإسلام خاتم رسالات السماء إلى أهل الأرض.

والصلاة والسلام على من جعل الله دعوته أكمل الدعوات وأتمها، وتشريعه أكمل التشريعات وأنفعها لكل الأزمان والأجيال. سيد الأولين والآخرين، الذي جعل الله بإتباع دينه وسلوك منهجه سعادة الدارين، الدنيا والآخرة، صلاة وسلاماً عليه وعلى آله وأصحابه ومن اقتدى بهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

إن الأحكام الشرعية التي شرعها الإسلام لأتباعه، إنما تُعرف بالأدلة التي أقامها الشارع الحكيم لترشد المكلفين إليها وتدلهم عليها.

هذه الأدلة التي أطلق العلماء عليها عدة مُسميات:

فمنهم من يُسميها بأصول الأحكام.

ومنهم من يُسميها بالمصادر الشرعية للأحكام.

ومنهم من يُسميها أدلة الأحكام.

وهي في أول الأمر وآخره، أسماء مترادفة والمعنى واحد، هذه الأدلة للأحكام تنقسم من حيث النقل والرأي إلى قسمين:

أولاً: أدلة نقلية وهي الكتاب والسنة والإجماع ومذهب الصحابي وشرع من قبلنا.

ثانياً: أدلة عقلية منها: القياس والاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب.

إذن فشرع من قبلنا من أدلة الأحكام وهو موضوع بحثنا الذي رغبنا أن نبحث فيه وأن نؤصله بإضافة شيء جديد إلى المكتبة الإسلامية والعربية.

شرع من قبلنا هو مجموعة الأحكام والشرائع التي شرعها الله سبحانه وتعالى على الأمم السابقة على الإسلام، وجاء بها أنبياءٌ سابقون وكلفوا بها، كشريعة آدم وشريعة إدريس وشريعة موسى وشريعة عيسى عليهم السلام.

من الحقائق الثابتة أنه يصعب البحث في هذا الموضوع من خلال كتب هذه الشرائع:

إما لاندراسها، وإما لعدم الموثوقية بها .

إلا ما جاء ذكره وقصه القرآن والسنة الصحيحة.

ولقد بذلت من الجهد في هذه الدراسة ما لم أتوقعه قبل الإقدام عليه والخوض فيه، وذلك لأن هذا الموضوع لم يلق اهتمام العلماء السابقين بالقدر الكافي ، فأكثر ما كتب عنه العلماء صفحات قليلة متناثرة بين جنبات موضوعاتهم ، لهذا كان عليّ أن أبحث وأدرس وأقارن وأخوض الغمار مع قلة بضاعتي.

وقد قسمت بحثي إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: يتكون من أربعة مباحث:

- المبحث الأول: وحدة العقيدة في الأديان جميعاً .
- المبحث الثاني: استعراض لبعض الرسالات السابقة.

- المبحث الثالث: ركائز الدعوات السابقة.
- المبحث الرابع: الإسلام والأديان السابقة.

الفصل الثاني: يتكون من أربعة مباحث:

- المبحث الأول: الصلاة.
- المبحث الثاني: الصيام.
- المبحث الثالث: الزكاة.
- المبحث الرابع: الحج.

الفصل الثالث: يتكون من تمهيد وخمسة مباحث:

- تمهيد .
- المبحث الأول: معنى شرع من قبلنا .
- المبحث الثاني: شرع من قبلنا هل هو شرع لنا .
- المبحث الثالث: في شرائع الأنبياء قبل محمد عليه السلام.
- المبحث الرابع: هل كان النبي ﷺ متعبد قبل البعثة بشرع من قبله.
- المبحث الخامس: النسخ وعلاقته بشرع من قبلنا .

ثم انتهيت إلى الخاتمة. فإن كان في دراستي هذه سداد فذلك توفيق من الله، وإن كان فيها خطأ أو تقصير فمن نفسي

اللهم اغفر لي ولوالديّ ولمن له حق عليّ

والله الموفق

الفصل الأول

دين الله واحد

في هذا الفصل سأتناول بالحديث عدة موضوعات: منها وحدة العقيدة عند الأديان جميعاً، وذلك لوحدة المصدر التي انبعثت منه، كذلك سأستعرض لبعض الأديان السابقة، موضحاً أن وحدانية الله هي أهم ركائز هذه الديانات، ثم منتهياً بالحديث عن موقف الإسلام من الشرائع التي سبقته وسيكون ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: وحدة العقيدة في الأديان جميعاً .

المبحث الثاني: استعراض لبعض الرسالات السابقة.

المبحث الثالث: ركائز الدعوات السابقة.

المبحث الرابع: الإسلام والأديان السابقة.

المبحث الأول
وحدة العقيدة في الأديان جميعاً

في هذا المبحث سأتناول بالحديث عن أن العقيدة عند الأديان جميعاً، واحدة لأن مصدر هذه الأديان واحد، أما ما حدث من تغيير عند بعض هذه الديانات فهو من فعل البشر.

من خلال دراسة منهج الدعوة إلى الله من خلال الديانات القديمة، وكما جاء ذلك واضحاً في القرآن الكريم، نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لا يُولي أمر التوقيت الزمني والمكاني والشخوص، مكانةً واضحةً أو كبيرةً.

يقول عبد الكريم الخطيب:

إن التوقيت الزمني لدعوات الأنبياء الذين ذُكروا في القرآن لم يكن من شأن القرآن الالتفات إليه والاهتمام به، لأن هذا التحديد ليس له أثر في الواقعة التي يذكرها القرآن، ولهذا المعنى ذاته لم تشر آيات الكتاب إلى أماكن الدعوات وإن جاء شيء من هذا فإنما ليخدم غرضاً آخر وراء هذا الغرض الأصيل للواقعة، (كمدين) التي ذُكرت في دعوة شعيب:

﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً** ﴾ (الأعراف: 85) فإنّ ذكرها يُنبئ عن أنها هي (مدين) التي توجه إليها موسى عقب فراره من مصر ، والتي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿ (**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ** ﴾ (القصص 22) وبهذا تكتمل قصة موسى وشعيب ويتحدد مكان التقائهما .

فالزمان والمكان ليس لهما شأن في وقائع الدعوات السماوية التي ذكرها القرآن الكريم، إذ أن مرمى الواقعة لا يُراد به إلا عرض مشهد من مشاهد الصراع بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل وليكن الزمان أي زمان، أو كل الأزمنة وليكن المكان أي مكان، أو كل الأمكنة، إنها قضية تتجدد على مر الأزمنة، وتقع في كل مكان فلا أثر للزمان أو المكان فيها.[1]

وعلى عكس هذه الملاحظة، نلاحظ أمراً آخراً ذات أهمية كبيرة وهي: الاهتمام بالترتيب الزمني بين هذه الدعوات فإنّ هذا الأمر نال من اهتمام القرآن الكريم اهتماماً كبيراً. إن هناك كثير من آيات القرآن جاءت لتذكر نبوة كل نبي ومن سبقه ومن لحقه من الأنبياء، وهذا الترتيب له اعتبارات كثيرة، لها علاقة بالتدرج في قضايا العقيدة والتشريعات، وهذا من صميم دراستنا هذه.

نعود مرة أخرى إلى عبد الكريم الخطيب متحدثاً عن ذلك:

وننظر في هذا فنجد أن الإنسانية وهي تدرج أولى مدارج الحياة، كانت أشبه بحياة الطفولة أو الصبا في حياة الإنسان، وإذا كان هذا شأنها فقد كان من تدبير الحكيم الخبير العليم أن تكون دعوات السماء في تلك المرحلة من حياة الإنسانية دعوة تلقائية تدعوا إلى الله مباشرة، دون أن تلفت العقول إلى الاستدلال عليه من النظر في ملكوت السماوات والأرض، لأن عقول المخاطبين أضعف من أن تنفذ إلى ما وراء القريب الواضح من ظاهر المحسوسات.

1. انظر: عبد الكريم الخطيب: قضية الألوهية بين الدين والفلسفة، ج1 ص(302،301).

وتكاد الدعوات التي سبقت إبراهيم عليه السلام تدخل إلى هذا الإطار وأن تكون جميعها هتافاً واحداً بهاتين الكلمتين **"اعبدوا الله"** هكذا من غير أن يُدعى العقل إلى البحث عن الله، والاستدلال عليه بالنظر في ظاهر الوجود وباطنه، هذا شأن التربية مع الصغار، يُدعون إلى الخير ويُنهون عن الشر دون أن يُترك إليهم التعرف على الخير أو الشر والاستدلال عليهما عن طريق البحث والنظر.[1]

إن الناظر في القرآن الكريم يجد أن جميع الأديان السابقة على الإسلام تشترك مع الإسلام في بناءٍ عقائدي واحد، لا تختلف ديانة عن الأخرى فيه ولا قيد أنملة، لأن منبع هذه الديانات جميعاً واحد، وغرضها التي تدعوا إليه واحد، فوحدانية الله أمر مشترك عند كل الأنبياء والرسل.

والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب السماوية والإيمان بالرسل أمر اتفقت عليه كل العقائد لا خلاف في أمر من أموره صغيراً أو كبيراً، إلا ما أدخلته أيدي الناس من تحريف وتزوير، فعدم إيمان اليهود باليوم الآخر تحريف من أحبارهم. وعدم الإيمان بعيسى ومحمد عليهما السلام تحريف وتزوير من أحبارهم. وتعطيلهم لعبادة الزكاة عندهم تحريف من أحبارهم. لقد اعتبر القرآن مجموعة هذه العقائد وهي الإيمان بالله الواحد والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالملائكة والإيمان بالرسل والإيمان بالكتب. لقد اعتبرها القرآن أركاناً للإيمان لا يُعتبر

---

(1) المصدر السابق: ج 1 ص 303

الإيمان إيماناً إلا بها جميعاً وأي انحراف في واحدة منها أو بجزء من ركن منها نقضاً للإيمان جميعاً . ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ . (البقرة :285)

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ .(الأنبياء: 25)

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (التوبة: 31)

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: وبالجملة نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية، ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضيةٍ واحدة وجهها إلى قوم محمد ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم ديناً جديداً إنما هو دين الأنبياء من قبلهم ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ (الشورى: **13**) .

ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد ويجعل منهم جميعاً أُمةً واحدةً لها إلهٌ واحدٌ كما لها شريعةً واحدةً ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ . (الأنبياء: 92) ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام والذي هو دين كل الأنبياء والمرسلين. إن الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين: إنه هو التوجه إلى الله رب

العالمين في خضوع خالص لا يشوبه شرك وفي إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أي لسان وفي أي زمان أو مكان دون تمرد على حكمه ودون تمييزٍ شخصي أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه أو بين رسول ورسول من رسله، هكذا يقول القرآن ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ (البينة: 5) .

ويقول تعالى: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (البقرة: 135) .[1]

ونهي هذا المبحث بحديث لعفيف طبارة:

" إن القرآن أخبر أن الله لم يرسل رسولاً واحدا إلا للدعوة إلى وحدانية الله ولهذا يخاطب الله رسولهُ محمداً عليه السلام بقوله ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ (الأنبياء: 25) .

ولهذا أمر الله رسوله محمداً بدعوة اليهود والنصارى إلى الوحدانية الخالصة ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: 64) .

[1]. انظر: محمد دراز: الدين، ص 183 .

وهذه الآيات تخبر أن الله لم يرسل رسولاً إلا بالدعوة إلى الوحدانية فغير التوحيد دخيل على الأديان.

المبحث الثاني
استعراض لبعض الرسالات السابقة

في هذا المبحث سنقوم بإذن الله تعالى باستعراض بعض الرسالات التي سبقت رسالة الإسلام،

وهي دعوة نوح، وهود، وصالح، وشعيب.

ثم ننهي هذا الاستعراض بدعوة إبراهيم، وموسى عليهم السلام.

أولاً. دعوة نوح:

وقد ذُكر نوح في القرآن الكريم مرات كثيرة بلغت ثلاث وأربعون مرة، ولها في كل مرة لون جديد إلا أنها جميعها تكمل صورة واحدة وهي الدعوة إلى الله وحده.

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)** ﴾. (نوح: 1– 4).

ويقول سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ**

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) ﴾. (المؤمنون: 23 ـ 25)

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) ﴾. (هود: 25 ـ 31).

في إطار هذه الآيات وغيرها من آيات القرآن المتعلقة بنوح عليه السلام كانت دعوة نوح إلى قومه التي لم يتخلف عنها لحظة (**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**)، ولكنهم للأسف كانوا في مستوى إنساني بحيث لا تستجيب عقولهم لغير العقاب المادي المباشر فكان لابد أن يقع العذاب الذي أوعدهم به واستعجلوه.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . (هود: 32)، وجاء العذاب الذي رجاه القوم وطلبوه فكان الطوفان الذي أغرقهم الله به ونجا نوح ومن آمن معه ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . (العنكبوت: 14)

ثانياً . دعوة هود:

ذُكر هود عليه السلام أربع مرات في القرآن الكريم وكانت دعوته إلى قومه قريبة من دعوة نوح ولكن فيها إشعار بأن الإنسان الذي يخاطبه هود قد كبر شيئاً عن ذلك الإنسان الذي خاطبه نوح وأنه أصبح قادراً نسبياً على أن يستنبط ويدرك فكان في دعوة هود إلى قومه إلفاتٌ قريب إلى بعض المظاهر المادية الملابسة لهم والملتصقة بحياتهم وأن ما هم فيه من نعمة إنما هو من عند الله الذي يدعوهم إليه، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) ﴾ (الأعراف: 65 ـ 69) .

فهو إذ يدعو قومه إلى الله يذكرهم بفضل الله عليهم وأنهم خلفوا قوم نوح الذين أهلكهم الله بظلمهم كما أن الله قد من عليهم ببسطة الأجسام وقوة الأبدان وتلك نعم جديرة بأن يذكروها ويذكروا المنعم بها وفي هذا رشدهم وفلاحهم.

وفي موقف آخر يهتف هود بقومه ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108)** ﴾. (الشعراء:107 ـ 108)

وموقف آخر ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ(132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135)** ﴾. (الشعراء: 131 ـ 135). فهذه أنعام وبنين وجنات وعيون يعيشون فيها وينعمون بها وهي ليست من صنع أيديهم وإنما هي من عند الله الذي يدعوهم الى الإيمان به. ولكن ماذا كانت النهاية؟ هل استجاب القوم لدعوة نبيهم بالإيمان بربهم.

ثالثاً. دعوة صالح:

ذُكر صالح عليه السلام في القرآن الكريم مرات مرات، وهي جميعاً مكملة لصورة واحدة وهي الدعوة لعبادة الله الواحد الأحد. وفي دعوته آفاق للنظر والتأمل أوسع من تلك الآفاق المحدودة التي جاءت بها دعوة هود. وللزمن أثره في تلك الفوارق العقلية بين قوم صالح وقوم هود إذ كان قوم صالح مذ خلفوا قوم هود وخلفوا الأحداث التي وقعت لهم والبلاء الذي صب

عليهم بعد أن عصوا رسول ربهم واستخفوا به وبدعوته وذلك لاشك تارك أثره في هؤلاء القوم بما فتح عليهم من أبواب البحث والتفكير قال تعالى: ﴿ **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ** ﴾ (هود: 61) .

و قال تعالى: ﴿ **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75)** ﴾ (الأعراف: 73 ـ 75) .

وقال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ** ﴾ . (الشعراء: 143 ـ 149) .

إن صالحاً يُذكّر قومه بقدرة الله الذي يدعوهم إليه، أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها . لهذا نجد أن دعوة هود لم تحمل معجزة استدلالية تنبئ عن قدرة الله وإنما حملت هلاكاً وتدميراً بعد أن انتهى دور النصح والوعد ومن قبلها كانت كذلك دعوة نوح لم يصحبها معجزة

استدلالية بينما حملت دعوة صالح معجزة استدلالية يرى فيها أولوا الرشد إشارة إلى الله وطريقا إليه وتلك المعجزة هي الناقة التي اقترحوا على صالح أن يخرجها لهم من صخرة معروفة عندهم وأن تكون عشراء تمخض أعطوا العهد لصالح فخرجت الناقة من الصخرة التي أشاروا إليها وجنينها يتحرك في أحشائها وقد آمن بعضهم بهذه المعجزة ولم يؤمن أكثرهم وتآمروا على الناقة فقتلوها وهنا حل بهم العذاب الذي أوعدهم به ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا** ﴾ . (الشمس: 14)

رابعاً . دعوة شُعيب:

ورد ذكر شعيب عليه السلام في القرآن الكريم أحد عشر مرة أحد عشرة مرة، وفي كل مرة تكمل جزء من الصورة الكلية لدعوته. قال تعالى: ﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ** (84) **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** (85) **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** (86) **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**(87) ﴾ (هود: 84 ـ 87).

وقال تعالى: ﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي**

الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) **وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** (86) ﴾ (الأعراف: 85 ـ 86) .

من خلال هذه الآيات وغيرها نلاحظ أن دعوة شعيب لم تقف عند حدود الدعوات الثلاث السابقة، بل أنها شملت هذا الأمر وهذه الدعوة إلى الله ثم تجاوزته إلى التشريع وذلك بمخاطبة الضمير الإنساني ودعوته إلى رعاية حقوق الناس ومعاملتهم بالعدل. والضمير إنما يأخذ مكانه في كيان الإنسان حين يرشد ويكتمل وعيه أما في مرحلة الطفولة والصبا فلا مكان للضمير. فنحن أمام إنسانية كادت أن تستكمل حظها من العقل والإدراك فهم لهذا أهل بأن تخاطب ضمائرهم وأن يطلب إليهم إقامة حياة اجتماعية يؤدي فيها الفرد حقوق الآخرين لكي يؤدوا له حقه.

لقد حاول شعيب مع قومه فجمع لهم المثل واستعرض بهم مشاهد الدمار والبلاء الذي نزل بمن سبقهم ممن تحدى الرسل وأعنتهم ﴿ **وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ** ﴾ . (هود: 89) . فهذه المهلكات التي رمى بها أولئك الأغبياء المعاندون لم تكن إلا مثلاً يخيف من حولهم ومن بعدهم وتدعوهم إلى الانصياع والتسليم للهداة الراشدين الذين يدعونهم إلى الطريق المستقيم. فكان أن أُنزل بهم عذاب الله يوم الظلة، ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ**

عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء: 189) .

دعوة إبراهيم وموسى عليهما السلام:

من زمن إبراهيم عليه السلام تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الدعوات السماوية، تحكي فيها الدعوات عن الجانب التأديبي العاجل إلى جزاء مؤجل يلقونه في الحياة الآخرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر. والناظر في دعوات إبراهيم وموسى وعيسى يرى أن الزمن قد استرخى حتى رشدت الإنسانية أو كادت فقد حملت إلى الناس دعوة إلى الله قائمة على النظر في ملكوته وعلى الإيمان به عن طريق هذا النظر الذي يرسله الإنسان في هذا الوجود فيعود إليه محملاً بالآيات الدالة على قدرة الله الناطقة بحكمة الخالق وعظمته.

دعوة إبراهيم:

ورد ذكره عليه السلام في القرآن الكريم تسعٌ وستون مرة، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)** ﴾ (الأنبياء: 51 ـ 59)

وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) ﴾ (العنكبوت: 16 ـ 17) .

إننا نجد إبراهيم عليه السلام يضع قومه أمام موقف يحتاج إلى عقل ونظر والى حساب وتقدير ليميزوا الخبيث من الطيب ويفرقوا بين الحق والباطل ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (الأنبياء: 52)

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت: 17) . إننا أمام دعوة تتعامل مع العقل الرشيد المكتمل النضج الذي يُدعى للنظر ويُحمل على المراجحة والموازنة بين الأشياء . لقد اختلفت دعوة إبراهيم عمن سبقه من الأنبياء أن دعوته بدأت تأخذ شكل العالمية، خرجت من نطاق القبلية والعشيرة والقوم الخاصّين وهذا فتح جديد في عالم دعوة الأنبياء .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) ﴾ (آل عمران: 96 ـ 97) .

دعوة موسى عليه السلام:

وقد ورد ذكره في القرآن مائة وست وثلاثون مرة وكان عليه السلام رسولاً إلى جهتين إلى قومه من بني إسرائيل والى فرعون الذي طغى وامتد طغيانه إلى بني إسرائيل ﴿**يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ**﴾ (القصص: 4) .

وهو مع فرعون يحمل إليه معجزات لا تقبل التحدي ولكن فرعون يتحداها وينتهي التحدي بانتصار المعجزة السماوية فيؤمن سحرة فرعون بموسى وُيجن جنون فرعون وتأخذه العزة بالإثم فيضاعف البلاء الذي يصبه على بني إسرائيل ولا يجد موسى إلا الهرب بقومه فيتبعهم فرعون وهناك على مشارف سيناء عند البحر الأحمر يقف موسى وقومه ومن ورائه فرعون وجنوده يكادون يلحقون بهم، ويضرب موسى بعصاه البحر فينفلق وينفتح له ولقومه طريق فيه وينسحب بقومه إلى الشاطئ الشرقي من البحر وفرعون وجنوده جادون في أثرهم يركبون نفس الطريق في قلب البحر وهنا تنتهي المعجزة بعد أن أدت دورها وينطبق البحر على فرعون وجنوده فيغرقون.

هذه المعجزات قد شهدها بنوا إسرائيل وكان من شأنها أن تقع من القوم موقع الإيمان وأن تقوم شاهد صدق على رسالة موسى ولكن القوم قد التوت نفوسهم فلم تستقم فيها تلك المعجزات ولم تقع في مغارس طيبة وظل القوم في حاجة إلى معجزات أخرى يتلو بعضها بعضاً وجاءهم موسى بالبينات، ضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً لكل قبيلة

منهم عين يُستقى منها ، وأنزل عليهم المن والسلوى وجاءهم بالتوراة فيها هدى ونور، وفيها تذكيرهم بما فضل الله عليهم من نعمه، إذ نجاهم من آل فرعون ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ (المائدة: 20) . ومع هذا فقد لجوا في الضلال والعناد وأبوا أن يعترفوا بكل هذه الآيات وطلبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة.

﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** ﴾ (البقرة: 55) . وكان من المتوقع أن ينزل العذاب الشامل بهم جميعاً وأن يقع البلاء الساحق الذي لا يُبقي ولا يذر ولكن يجيء الأمر على غير هذا فيقع البلاء ويحل العذاب في حدود معينة تنال المعتدين وتأخذ الظالمين. فالذين اعتدوا في السبت وخرجوا على الشريعة هؤلاء مُسخوا مسخاً خرج بهم عن الإنسانية فكانوا قردةً يُسخر منهم ويُستهزئ بهم وتكون فيهم العبرة لمن اعتبر ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾ (البقرة: 65) . والذين صُغر في نفوسهم شأن الله حتى طلبوا أن يروه عياناً كما يرون الأشياء هؤلاء أخذتهم الصاعقة بظلمهم: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** ﴾ (البقرة: 55) .

وأما الذين عبدوا العجل وجعلوه إلهاً فقد نالهم من الله غضب وذله في الحياة الدنيا وإن يكونوا قد تابوا ورجعوا عن ضلالهم بعد أن راجعهم موسى ونسف العجل الذي عبدوه وهم ينظرون ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ**

نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (الأعراف: 152) . لم يقع العذاب شاملاً ولم يأخذ القوم جميعاً و إنما وقع على من استحقوه بما ظلموا، لأن في البقية رجاء وفيهم مكان لمغارس الهداية والإيمان. ولقد كان في بني إسرائيل مفسدون توالوا على مدار الزمن والقرون لم تستقم مع الحق والخير نفوسهم كانوا نبتاً سيئاً، وما زالوا في فلسطين وغيرها من بلاد الله الواسعة نبتاً سيئاً، ولكن السماء توالت اقتلاعهم على مدار حلقات إفسادهم.

خلاصة ما تقدم:

لقد سايرت دعوة الأنبياء والرسل رسولاً بعد رسول وعصراً بعد عصر عقلية الإنسان يتلاقى مع المستوى الذي كان لها من الوعي والإدراك، كان المنهج في الرسالات الأولى منهجاً تلقائياً يلقن الإنسانية في طفولتها مبادئ العقيدة:

﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ (الأعراف: 152) . كما يلقن الأطفال أسماء المسميات، هذا مصباح، هذا مذياع، وذاك منزل، وتلك شجرة، وهكذا، ثم دخل المنهج مدخلاً آخر حين تطورت الإنسانية واتسعت مداركها بعض الشيء فكان إلى جانب الدعوة إلى الله إلفات إلى الوجود المادي ليستدل من النظام الممسك به على عظمة الخالق المبدع وقدرته وكذلك صحب هذه المرحلة من دعوات الرسل معجزات غير انتقامية .يراد بها تأييد الرسول وتزكية دعوته بأنه رسول رب العالمين وذلك حين يراها الناس فيرون معها مالا يمكن كبشر أن يأتي به،

وذلك عمل يحتاج إلى وعي وإدراك لا يبلغه المرء إلا بعد أن يجاوز مرحلة الصبا ويشرف على مرحلة الرجولة أو يبلغها[1] .

نختم هذا المبحث بحديث تحت عنوان الاختلاف في الدين بسبب البغي والعدوان لعفيف طبارة:

إن الدين واحد وإن الاختلاف الذي كان فيه عبر العصور هو بسبب البغي والعدوان على الدين وتحريفه من قبل القائمين عليه بما يوافق مصالحهم للوصول إلى الرياسة وحظوظ الدنيا وكانت رسالة محمد إظهار هذه الحقيقة ودعوة الناس جميعاً أن يجتمعوا على الدين الإسلامي قال تعالى:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20) ﴾ (آل عمران: **19 ـ 20**) .

وإذا كان الدين واحد لا يجوز الاختلاف فيه فهذا الخلاف الذي حصل من أتباع الأديان اليهودية والمسيحية والإسلامية من افتراق كل طائفة إلى فرق وحصول العداوة بينهم هو مخالف لتعاليم الله الذي ما أنزل الله الأديان إلا لتكون سلاماً على الأرض أو محبةً بين الأفراد

[1] انظر: قضية الألوهية: عبد الكريم الخطيب – 315.

والأمم، ولهذا كانت رسالة محمد التوفيق بين المتخالفين ببيان الحق الذي حادوا عنه والتحذير من الاختلاف ولهذا يقول تعالى مخاطباً أتباع محمد: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ (الشورى: 13 ـ 15).

فوحدة الدين حقيقة أعلنها القرآن وهي تُدحض شبهات الذين ينكرون الأديان بسبب اختلافها في جوهرها وأصولها فادعاؤهم بأن كل نبي يأتي من عنده بدين يناقض سابقيه قول لا يمت إلى حقيقة الأديان بصلة فالدين واحد في أصوله في نظر القرآن ولكن الأديان تختلف في تشريعاتها لاختلاف أحوال الأمم الاجتماعية ودرجة استعدادها العقلي. ولقد ختم الله الأديان بالدين الإسلامي وأعطى محمداً شريعةً تنسخ ما قبلها من الشرائع مظهراً فيها كنه الدين الحق وهذه الشريعة توافق ما اقتضاه التطور العقلي للإنسان وتصلح لكل زمان ومكان وأنها هي الشريعة المقبولة عند الله ولا يقبل غيرها ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (آل عمران: 85) والمعنى: من يطلب بعد بعثة محمد دينا وشريعة

غير الإسلام فلن يرضى الله منه ذلك وهو في الدار الآخرة من الخاسرين الذين خسروا نعيمها(1) .

(1) انظر: روح الدين الإسلامي: عفيف طبارة ، ص16 .

المبحث الثالث
ركائز الدعوات السابقة
وحدانية الله

في هذا المبحث سيكون الحديث عن الوحدانية التي هي مقصد الديانات جميعاً ثم الحديث عن الانحرافات التي طرأت على بعض هذه الديانات، مثل اليهودية والنصرانية.

وحدانية الله مدلولها العقلي أنها تشمل الوحدة في الوجود أي أنه إلهٌ واحدٌ فلا تعدد آلهةٍ بأي صورة من الصور وكذلك تشمل الوحدة في التركيب فليس الله سبحانه وتعالى مُركباً ومُكوناً من أجزاءٍ وكذلك الوحدانية تشمل الوحدة في العبادة فليس هناك معبود إلا الله وليس هناك صاحب سلطان مطلق يصرف الأمر كله وننصرف إليه خاضعين ساجدين إلا الله الواحد القهار.

والتوحيد بهذا المعنى عظيم الفائدة للجنس البشري لأنه يجمع البشر حول إله واحد وفي ذلك توحيد اتجاههم وغرس النظام والأخوة فيما بينهم، أما تفرق الآلهة فمعناه تفريق البشر وذهاب كل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه وعقله إليه وفي ذلك من مفسدة النظام والخسارة للبشرية.

ومن فوائد عبادة الله وحده عبادة مباشرة دون وساطة ودون زلفى تحرير الفكر البشري من الخضوع لغير الله من إنسان أو حيوان أو جماد أو نبات وأجرام سماوية وقوى

طبيعية. ومعنى ذلك ألا يعبد الإنسانُ الإنسانَ، ففي عبادة الإنسان للإنسان ذل وطبقية لا يعرفها المسلم لله ومن معاني ذلك أيضاً ألا يعبد الإنسان ما سخره الله للإنسان من حيوان أو نبات أو غيرها، ففي تخليص الإنسان من هذه العبادة وضع له في مكانه الطبيعي وتوحيد الله وعبادته دون سواه تكسب الإنسان الأنفة والعزة والشجاعة ما دام يدرك أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (التوبة: 51).

وتوحيد الله وضع طبيعي حتى أننا نرى أن كثيرين ممن يقولون بالتعدد يلجئون إلى التوحيد في كثير من منحنيات حياتهم، إذ يظل هؤلاء في صراع بين التوحيد الذي تجذبهم له طبيعة الألوهية وبين اتجاهاتهم التي هي تعدد بصورة من الصور التي ينتهي الأمر بالتوحيد أو عقيدة قريبة منه.

يقول الدكتور أحمد شلبي: نجد كثيراً من المسحيين يضيقون بالتعدد ويدركون ضرورة هزيمته أمام العقل فيلجئون إلى القول بأن اعتقادهم هو وحدة في تثليث أو تثليث في وحده والمصريون القدماء تتعدد عندهم الآلهة ولكنهم يؤمنون بإله عظيم هو سيد الآلهة وكبيرهم. ولما كان التوحيد ضرورياً لهذا كان قاعدة الأديان السماوية كلها قبل أن تفسدها الأفكار الطارئة الضالة.

قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ (الأنبياء: 25) . ولقد لجأ القرآن الكريم للعقل يحكمه في مسألة التوحيد والتعدد ويثبت بأسلوب منطقي أن خالق الكون ومدبره لا بد أن يكون واحد ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ (الأنبياء: 22) . ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ (المؤمنون: 91) .

أما التوحيد عند اليهود كما يقول سهيل ديب نقلاً عن ايزيدور ايشتاين في هذا الصدد: إن إبرام الذي غير اسمه إلى إبراهيم كان أول الموحدين اليهود وقطع ابرام حياته مع عبادة الأصنام وكرس نفسه لخدمة الإله الواحد الأحد الذي اعترف به كخالق للسماوات والأرض، إلا أن أحد علماء اليهود يؤكد أن فكرة التوحيد وتطبيقها لدى اليهود لم ترتكز على أسس دينية أو روحية بقدر ما ارتكزت على ضرورات سياسية واقتصادية وذلك على أثر منافسة شديدة على زعامة اليهود بعد النفي البابلي، كتب النصر فيها للفريسيين وهؤلاء كانوا باتفاق جميع المؤرخين أصحاب الأثر الأكبر والأبقى في صياغة تاريخ وشريعة اليهود [1] .

أما المشككون في كون اليهود موحدين منذ نشأتهم فهم كثيرون، منهم اليهود أنفسهم فكما يقول البروفيسور فإن فكرة التوحيد ظهرت ورسخت بناء على مقتضيات معينة تاريخها محدد

[1] . انظر: مقارنة الأديان: أحمد شلبي، 98.

بدقة وهو تاريخ الكتبة الفريسيين في بابل، إلا أن النظرية التي يتفق عليها العلماء أكثر من غيرها تقول إن إله اليهود يهوه هو تطور طبيعي وبطيء من مرحلة تعدد الآلهة التي مر بها اليهود شأنهم شأن القبائل البدائية الأخرى.

يقول سير سميث: وقد اتخذ يهوه لنفسه خلال تطوره البطيء في فوضى تعدد الأديان لكثير من خصائص آلهة إسرائيل المتعددة والصفة المشتركة لأكثر القبائل القديمة هي الحجر والنار وتشترك هاتان الصفتان معاً لتشكلا جبلاً بركانياً وهو رمز القوة الهائلة **(هو ذا اسم الرب يأتي من بعيد غضبه مضطرم والحريق شديد وشفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة ، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة ليغربل الأمم بغربال السوء)** [1].(3).

تحريف اليهود لعقيدة التوحيد:

يَهْوَهْ " إله التوراة ":

يهوه: في العبرية اسم عَلم للإله الحقيقي، معناه " هو الذي يكون "، وقد تُرجم بلفظ الرب، ويُفسره بعض العلماء بأن معناه " هو الذي يُوجد "، أي الخالق، ويُفسره آخرون بأن يَهْوَهْ من هوى في العربية التي منها الهواء، ومعناه " يسري في الأهوية "، أي يهبُّ، فهو إله العاصفة.

[1] . العهد القديم: سفر إشعياء، 30/ 28.27 ص 1027

3. انظر: التوراة: سهيل ديب، ص 71 .

ويرد في العهد القديم باسم يهوه، والله، وإله، ورب، وجميعها لها مدلول واحد يدل على الإله يهوه، إله القبيلة الإسرائيلية، الذين أعلن توراته بلسان موسى في صحراء سيناء، حسبما ورد في التوراة، فيَهْوَه إله شعب بدوي قبلي، وهو إله حرب إقليمي، اتخذه موسى إلهاً " بزعمهم " يضع أوامره وأحكامه على لسانه ليكتسب صفة القُدسية، وفرض عبادته على قومه بني إسرائيل بالإرهاب الذي ما يزالون يتبعونه كأسلوب في تثبيت دعائم كيانهم ووجودهم.

وهو إله محجوب عن عيون البشر، لا يُصوّر بأيّة صورة، ليس له مسكن ثابت، يُوجد في كل مكان، لا أُسرة له، وهو ليس بذكر أو أنثى، عقد عهداً خاصاً مع إسرائيل وجعل منهم شعبه المختار الخاص به، وعلّمهم العداء للشعوب وأثار فيهم روح التعصّب والتفوّق والتميز العنصري، فهو يقول: " اتخذتكم لي شعباً، وأكون لكم إلهاً، أنا يَهوَه الذي ميّزكم من الشعوب . . "، إنه إله التوراة، وكان يظهر وسط السُحب بدون معبد أو مذبح، وتظهر قوته في البرق والعاصفة، وهو يقود شعبه في ترحالهم مستقراً فوق " تابوت العهد " (3).

وقد وُصف يهوه بأنه إله مجرّد، لا تمثيل مادي له، فهو ليس بالوثن، ولا بالصنم، ولا يُمثل مظهراً من مظاهر الطبيعة، وهو منزّه عن المادة، خالق كل شيء بكلمة منه، يتصرف بمخلوقاته كيف يشاء، وها هو يُفصح عن نفسه مُخاطباً موسى قائلاً: " أنا يهوه، وأنا ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب، بأني الإله القادر على كل شيء، وأما اسمي يهوه فلم

أُعرف عندهم، وأيضاً أقمت معهم علاقة عهدي أن أعطيهم أرض كنعان، أرض غُربتهم التي تغرّبوا فيها، وأنا قد سمعت أنين بني إسرائيل، الذين يستعبدهم المصريون، وتذكّرت في عهدي، لذلك قل لبني إسرائيل، أنا يهوه، وأنا أُخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأتخذكم لي شعباً، وأكون لكم إلهاً، وأُدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم، وإسحق ويعقوب، أعطيكم إياها ميراثاً، أنا يهوه " (1) .

فمنذ عهد الله مع موسى في حوريب يُطلق عليه يهوه: "وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إلى آبائكم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، أرسلني إليكم هذا اسمي إلى الأبد " (2)، " قل لبني إسرائيل أنا الرب يهوه، وأنا أخرجكم " (3)، وهو الذي قال لموسى عن اسمه، وأمره أن يُخبر بني إسرائيل بذلك قائلاً: " فقال الله لموسى أَهْيَهِ الذي أهيَه. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيَه أرسلني إليكم، إليكم " (4) . وعندما اختار الرب "يهوه" موسى نبياً وقائداً ناداه قائلاً: " أنا إله أبيك ، إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب، فغطّى موسى وجهه، لأنه خاف أن ينظر إلى الله، فقال الرب: إنّي قد رأيت مذلة شعبي، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم إلى أرض جيدة

---

1. العهد القديم: سفر الخروج: 3/6، ص 94.
2 . المصدر السابق: سفر الخروج، 15/3، ص 90.
3. المصدر السابق: سفر الخروج، 6/ 6، ص 94.
4. المصدر السابق: سفر الخروج، 3 /14، ص 94.

وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، إلى مكان الكنعانيين والحثيين، والآموريين، والفرزيين، والحويين، واليبوسيين، فالآن هلمَّ، فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر" [1]، وفي إِشَعِيا يُصبح لاسم "يَهْوه" وقْع جديد يدل على سرمديته فهو " إله الدهر" [2]، ويقول: " أنا الأول وأنا الآخر" [3]، هذا هو الرب يهوه الذي لا يعرف الاعتدال في انفعالاته، يُكابد من الآلام أشدّها، بسبب افتقاره لهذا الاعتدال، ويعترف بأن الغضب والغيرة يأكلانه أكلاً، ومعرفته لهذه الحقيقة تؤلمه إيلاماً شديداً، فهو لا يطيق آلهة أخرى أمامه، لأنه يترفع عن كل الآلهة، جاء في التوراة: " الرب إلهك هو نار آكلة، إله غيور " [4].

يهوه: إله من نوع خاص، تتوفر فيه صفات مُميزة هي: الغضب، والحقد، والشر، والاغتباط بسفك الدماء، وإشعال نار الحروب، إنه ينصر شعباً على آخر، وهو يسحق كل الشعوب المعارضة لحكمه، ويكون بينه وبين أتباعه نوعاً من المنفعة المتبادلة، فهم يعبدونه، ويُقدمون له القرابين، وهو ينصرهم في الحروب، ويُملكهم أرض الأمم الأخرى، ويجمع شتاتهم على حساب شعوب الأرض، ولو أدى ذلك إلى إفنائهم تماماً .

1. المصدر السابق: سفر الخروج، 3/ 6ـ 10، ص 90.
2. المصدر السابق: سفر إشعيا، 28/40، ص 1040.
3. المصدر السابق: سفر إشعيا، 6/44، ص 1045.
4. المصدر السابق: سفر التثنية، 24/4، ص 285.

ورد في سِفر الخروج وصفاً دقيقاً للإله " يهوه "، يُبيّن فيه حقيقة تكوينه ونزعته الدموية اللاإنسانية: " الرب رجل الحرب، يمينك يا رب معتزة بالقدرة يمينك يا رب تحطم العدو، وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك، تُرسل سخطك فيأكلهم كالقش، ويربح القداسة، صانعاً عجائب، تمد يمينك فتبتلعهم الأرض، تُرشد برأفتك الشعب الذي فديته، تهديه بقوتك إلى مسكن قُدسك، يسمع الشعوب فيرتعدون، تأخذ الرعد سكان فلسطين، حينئذ يندهش أُمراء آدوم، أقوياء مؤاب، تأخذهم الرجفة، يذوب جميع سكّان كنعان، تقع عليهم الهيبة والرعب، بعظمة ذراعك، يصمتون كالحجر، حتى يعبر شعبك يا رب " .([1])

فالإله " يهوه " ليس هو الله، ولا يُؤمن بوحدانية الله، فهو مُعجب جداً بربه من بين الآلهة المتعددة. مَن مثلك بين الآلهة يا رب، وهذا غاية الإلحاد، ولنستمع إلى نشيد موسى وبني إسرائيل التليد، وهو من وحي التوراة، على لسان الرب: " اسمعي يا شعوب المقهورين، فليمتلك الخوف منا الفلسطينيين، وليرتعب من هولنا صناديد البتراء، ولترتجف عول مُآب، وليتطاير كل سُكان كنعان ويُخيم على سمائهم الذُعر والرهبة، فبجبروت بطشك جمّدهم كالحجارة، وعندئذٍ ينتقل شعب الله المختار إلى حيث أراد الله له " .

كلام ما قاله الله ولا نقله موسى، عندما تفنى البشرية يُصبح حراً " شعب الله المختار " ينتقل في أرجاء الكون إلى حيث يشاء الرب لهم، فهم وحدهم يمتلكون الأرض،

1. المصدر السابق: سفر الخروج، 15 / 3 _16، ص 111 .

وهم وحدهم لهم حق الحياة، هذا هو " يهوه "، إله الحقد والرعب، والدم، يغتبط بمشاهد الذبح، وينتشي برائحة الدّم والمحروقات، وجبروت بطشه يُجمّد الناس كالحجارة، وهو يحارب معهم، تقول التوراة: " يطرد الرّب جميع الشعوب من أمامكم، فترثون شعوباً أكبر، وأعظم منكم، كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم، من البرّية ولبنان، من نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تُخمكم لا يقف إنسان في وجهكم، الرّب إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها " [1].

هكذا علمهم يهوه، يذكر كتّابهم ما فعلوه في مدينة أريحا عندما دخلوها أول مرة، " وحرّموا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم، والحمير بحدّ السيف" [2]، وهذا ما فعله يوشع بن نون عندما دخلها غازياً.

هذه المبادئ الدينية التي يعتقدون بها ويهتدون بهديها، فهم يُفسدون في الأرض حيث حلّوا ويُبيدون أبناء البشرية أينما وجدوا دون تمييز بين صغير أو كبير فهم يعملون بوصايا الرب يهوه، وتنفيذ لأحكام، التي تنحصر في إبادة شعوب الأرض، وتدمير مظاهر الحياة الحضارية. غايتهم المُلك والتملك، يقول الرب: " حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير، ويُستعبد لك، وإن لم تُسالمك، بل عملت معها حرباً، فحاصرها، وإذا دفعها

1 المصدر السابق: سفر التثنية، 23/11- 25، ص 298.

2 المصدر السابق: سفر يشوع، 21/6، ص 345.

الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا افعل بجميع المدن البعيدة منك جداً، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يُعطيك يَهْوه إلهك نصيباً، فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرّمها تحريماً" [1] .

كل شيء في نظر يهوه مُباح، القتل والإبادة، التدمير والتشريد، والاقتلاع، من الجذور، لكل شعوب الأرض، حتى أن قومه اليهود لم يسلموا من غضبه، ومن شره، ومن بطشه، فعندما تكلم القوم على الرب وعلى موسى، عندما سباهم ملك عراد الكنعاني، سخط عليهم يهوه، لأنهم يُخالفون مشيئته، ويتمرّدون عليه وعلى موسى أيضاً فهو يغضب منهم ويُرسل إليهم الآفات كالحيّات وغيرها " فأرسل الرب على الشعب الحيّات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل "، أو يُرسل الزنابير على الشعوب التي تخالف أوامره حتى يفنيها تماماً .

ما أكثر الآيات في كتاب التوراة التي تُفيد البطش والإرهاب، والتهديد بالموت، وسفك الدماء، فلنستمع: " الآن إذن، اضرب أمامك، واحظر عليه كل ما يملك، لا تترك له شيئاً، اقتل الكل: الرجال والنساء، والأطفال، والرضّع، والأبقار والخراف، والجمال، والحمير "، هكذا سوّغت لهم توراتهم، وألصقوا كل أعمالهم الحقيرة اللا أخلاقية، واللا

1 المصدر السابق: سفر التثنية ، 10/20_ 17، ص 311 .

إنسانية بربهم يهوه الذي يُصدر أوامره وكأنه في غُرفة عمليات حربية يقود معركة، ويشنّ هجوماً، يقول: " يهوه كلمنا في حوريب قائلاً: كفاكم قعود، ارتحلوا وادخلوا جبل الآموريين، تملكوا الأرض، اصعد، تملّك، الرب يُحارب عنكم ، قال الرب لي : لا تصعدوا ولا تحاربوا لأني لست في وسطكم ، كفاكم دوران بهذا الجبل ، تحولوا نحو الشمال، قال الرب: قوموا واعبروا وادي زارد، قوموا واعبروا وادي أرنون، دفع الرب ملك حشبون وأرضه، ابتدئ تملّك، ودفع ملك باشان، قال الرب لموسى: لا تعد تكلّمني في هذا الأمر ".

هذا هو يهوه، يُرسل الحيات، ويُرسل الزنابير، ويُسلط الأمراض والآفات، ويطرد الشعوب، ويقتل الأطفال، والشيوخ، ويقتلع الأشجار، ويقتل الحمير، ويُقاتل على كل الجبهات، إنه غرور الآلهة يتجسّد في ذات يهوه، الذي اختار شعباً وأراد له التفوق والانتصار على كل شعوب الأرض، فهو الملك القاهر القوي يعدُهم بالحماية والبقاء، ويعدهم بتمليك أرض الآخرين، واستلاب أموالهم، وهو الذي يفجّر المياه لقومه من قلب الصخر إذا عطشوا، ويُنزل المن والسلوى إذا جاعوا، وتنطق التوراة باسم موسى أيضاً فها هو يُوصي قومه ويعطيهم خطة الغزو، والإرهاب لمتابعة تنفيذها بعد موته، يقول مُخاطباً جميع بني إسرائيل: " أنا اليوم ابن مائة وعشرين سنة لا أستطيع الخروج والدخول بعد، ويهوه قال لي: لا تعبر هذا الأردن، يهوه إلهك هو عابر قدّامك، هو يُبيد هؤلاء الأمم من قُدامك فترثهم، فمتى دفعهم يهوه أمامك تفعلون به حسب كل الوصايا التي أوصيكم بها،

تشدّدوا وتشجّعوا ولا ترهبوا وجوههم لأن يهوه إلهك سائر معك، لا يُهملك ولا يتركك، فدعا موسى يشوع وقال له: أمام أعين جميع إسرائيل تشدّد وتشجّع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التي أقسم ربي لآبائكم أن يُعطيكم إياها، وأنت تقسمها لهم، والرب سائر أمامك، هو يكون معك ولا يهملك، ولا يتركك، ولا تخف، ولا ترتعب " [1] .

لا يشغل بال الرب شيء إلا تمليك بني إسرائيل الأرض، وتحديد هذه الملكية، وكيفية الاستيلاء على أرض كنعان وتمليكها لهم، فهو يعقد ميثاقاً واتفاقاً مع بني إسرائيل بإعطائهم أرضاً مأهولة بأصحابها، عامرةً بحضارتهم وآثارهم، تفيض أرضهم بالعسل واللبن، فهو يُعطي شعباً بلا أرض، أرضاً بلا شعب، يا له من إله حاقد متزمّت، عنصري متعصّب، اختار بني إسرائيل من بين شعوب العالم، وفوض لهم السلطة والتسلط على أموال وأعراض وأملاك بني البشر.

فها هو يقول لموسى: " خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل " [2]، إنه لا يرضى عن إسرائيل ولا يرتد حمو غضبه عنهم إلا إذا علّق جميع رؤوس الشعب أمام الشمس، إنه كما يفعل مصاصو الدماء، وأكلة لحوم البشر، المتنقلون بين البراري والقفار عند الشعوب البدائية، يتلذذون بأكل فريستهم، ويغتبطون بمشاهد

1. المصدر السابق: سفر التثنية، 31/ 2_8، ص 329.

2. المصدر السابق: سفر العدد، 25 /4_5، ص 255.

الذبح، ويتشون برائحة الدم والمحرقات، وهكذا يحدد طريقة التعامل مع شعوب سيناء وفلسطين وكل البشر.

تقول التوراة في وصفها لحياة هذه القبيلة الغازية البدائية الهمجية بأنها: " الآن يلحس الجمهور كل ما حولهم كما يلحس الثور خضرة الحقل " [1]، وأنها: " هو ذا شعب يقوم كلبوة و رتفع كأسد لا تنام حتى تأكل فريسة ويشرب دم قتلى " [2].

هذه هي إسرائيل اليوم، ورثت هذه العدوانية والإرهاب كابراً عن كابر، وهم يُؤدون رسالة آبائهم وأجدادهم في القتل والذبح والتشريد، عن طريق عصاباتهم المحترفة للإجرام، أمثال: الهاغاناه، والأرغون، وشتيرن، ويعزون أفعالهم البذيئة إلى الله "يهوه"، ويعدون كل ممارساتهم الإجرامية تعاليم دينية موروثة من كتبهم الدينية، المكتوبة وفق أهوائهم وأمزجتهم، وينسبونها إلى إلههم "يهوه" ألا ساء ما يفعلون.

تحريف التوحيد عند النصرانية:

تطورت المسيحية إلى أن تكونت فكرتها عن الثالوث المقدس، الذي يُعد جوهر العقيدة المسيحية، وهي أن الله الواحد له ثلاثة أقانيم " شخصيات " متساوية في الجوهر هي: الله

1. المصدر السابق: سفر العدد، 5/22، ص 249.
2. المصدر السابق: سفر العدد، 24/23، ص 253.

الأب، والله الابن [1]، والله الروح القدس، وهذه كلها واحد، فكلمة الله حلّت في مريم البتول وتجسّد منها إنسان وُلد هو يسوع، فالأب: هو الذي خلق العالمين بوساطة الابن، والابن هو الذي أتمّ الفداء وقام به، والروح القدس: هو الذي يُطهّر القلب والحياة.

ولكن كيف تكونت هذه الفكرة، وما هي أُسسها .

لقد عرّف قانون الإيمان هذه العقيدة بالقول التالي: " نؤمن بإله واحد، الأب والابن والروح القدس، إله واحد جوهر واحد، متساوين في القدرة والمجد " .

يعتقد المسيحيون بوجود الله خالق كل شيء، لكنهم بعد أن رأوا معجزات السيد المسيح الكثيرة واعتقدوا أنه صُلب، ثم ظهر ثانية، وهذه من خوارق الأمور، تكونت فكرة راسخة في نفوسهم عن مكانة المسيح وعن قدرته وقوته، فصاروا يبحثون عن طبيعة تكوينه وخصائصه، معتقدين أنه لا مثيل له من حيث ولادته من غير أب، ولكن ذلك على الله هيّن.

قال تعالى: **﴿إِنَّ مَثَل عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمْ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونْ﴾** (آل عمران: 59) ، وتكونت عندهم آراء مختلفة في القرن الرابع الميلادي، **أهمها ثلاثة آراء هي:**

1 الابن: أو ابن الله ورد في قاموس الكتاب المقدس أنه أطلق هذا اللقب على المسيا، وهو يدل على العلاقة بين الأب السماوي والابن الأزلي والمسيح بما أنه ابن الله فهو إله بكل الكمالات غير المحدودة التي للجوهر الإلهي، والابن مساو لله في الطبيعة، فالمسيح ابن الله ليس من وجهة النظر الجسدية كما يُفهم من كلمة "ولد" إنما يُفهم به كتشبيه ليعبّر عن مقدار المحبة والتعاون والتساوي في الطبيعة بين الأقنوم الأول والأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس.

1. رأي الأب بولس الذي قال إن المسيح شخص سماوي نزل إلى الأرض وأنه روح الله وصورته.

2. رأي اليوصفية: الذين قالوا إن المسيح هو كلمة الله، فهو إله لأن الكلمة فيض من الله.

3. رأي ثالث: يقول إن المسيح ليس رجلاً إلا في ظاهره ومظهره.

وفي هذه الآراء الثلاثة إجماع على أن المسيح أكثر من بشر، وأنه متصل بالله، ولنسمع قول الله فيهم: **﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ، وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ، إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْه فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ، وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ، انْتَهُوا خَيراً لَكمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، سُبْحَانَه أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾** (النساء: 171).

إن المسيحية متمّمة لليهودية ، فهي ديانة توحيد، لأنها رسالة من السماء، لكن فكرة التثليث هذه تتعارض مع فكرة وحدانية الله وهذا تناقض في الاعتقاد، وهي مشكلة معقدة ظهرت أمام المسيحيين قبل القرن الرابع فكان عليهم إما الاعتقاد الكامل بوحدانية الله أو الاعتقاد المتناقض بأن الله ثالث ثلاثة، يقول جينيبر: " إن المسيحيين فضلوا الاعتقاد المتناقض على إهمال الثالوث، فقالوا: بإله واحد في ثلاثة، وهذه النتيجة عارضها اليهود المتنصرون في عهد المسيحية، هذا الجدل حول الثالوث المقدس، مزّق المسيحية إلى فرق متعددة، مع أنه لا يُوجد أي دليل على أن رسل السيد المسيح سمعوا

منه شيئاً عن الثالوث أو على الأقل سمعوا منه شيئاً عن ذلك من سيدهم نفسه، وكذلك لا يقول عيسى كلمة واحدة عن عبادة والدته مريم ".[1]

وقد جاء ذلك في كتاب الله المجيد عندما سأله قائلاً: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللهُ، يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَم أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُون الله، قَالَ سُبْحَانَك مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبُ**﴾ (المائدة: **116**) . فالله تعالى وحدة المتجلي على عباده وخلقه لا شريك له في مُلكه، وما الأنبياء والرسل من عهد آدم إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ بشر يأتمرون بأوامر الله بوساطة وحي من عنده وكل ما عدا ذلك فهو باطل، بل يُعدّ كُفراً وإلحاداً .

لقد جاء المسيح ليقود الناس في طريق السلام، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وهو حاضر معهم حضور الله الأزليّ الدائم، ومتى اجتمع عدد من المسيحيين وكانت نيّتهم صافية كان الروح القدس معهم، واستناداً إلى هذا الوعد من السيد المسيح عُدّ روح القدس مبدأ إلهياً دائماً حاضراً يعمل للمسيحية والكنيسة المسيحية.

يُحدّث الإنجيل عن المسيح بوجود روح القدس، ويصفه بأنه مُعزّ وأنه روح الحقيقة، يقول: " وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يُعلّمكم كل

---

[1]. انظر: معالم تاريخ الإنسانية: ويلز، ص 325.

شيء ويُذكركم بكل ما قلته لكم " (1)، وتتفق كل المبادئ المسيحية تقريباً على وجود روح القدس شاهداً أزليّاً بين المسيحيين " (2)

وتتلخص رسالة السيد المسيح بثلاثة مبادئ، هي:

1. أن المسيح كان يُؤمن بالتوراة الموسوية، وأنه جاء مُصدّقاً لما بين يديه منها، ولم يكن يهدف إلى تأسيس دين جديد، ينقض اليهودية، بل جاء ليُصدّقه، ويُتمّمه، إلا أنه نبذ كل ما يُخالف فكرة الدين التوحيدية الأصلية، وأغفل من كتبهم كل ما هو غير مقبول أو غير معقول، مما يدل على ضيق فكرهم، وعدم تعمق فهمهم لأصول الدين.
2. أن المسيح كان يقول بأن الله أب للناس جميعاً يُحبهم كلهم بقدر متساوٍ، وأنه رسوله لكل البشرية، دون تمييز، على عكس اليهودية التي اعتقد أتباعها بأنهم شعب الله المختار، وأن الله إلههم وحدهم.
3. أن المسيح كان يُبشّر بمجيء ملكوت الله، قاصداً بذلك السلام، والصفاء التام، والمحبة بين الناس، لكن اليهود فهموا من ذلك مجيء مَلك وعرش

[1] العهد الجديد: إنجيل يوحنا، 14 /26، ص 176

[2] انظر: تاريخ الأديان: د.يوسف العش، ص265.

وسلطان ينازعهم، فلم يُؤيدوه بدعوته، فحاربوه وعذّبوه، وزعموا أنهم قتلوه، كما قتلوا غيره من الأنبياء والرسل، ألا ساء ما يفعلون.

نظرة المسلمين إلى الله والأديان:

الله هو الله، واحد لا شريك له، أنزل التوراة والإنجيل والقرآن على أنبياء ورسل شُرفاء عُظماء رُحماء، بوحي من عنده، وهو الخالق الباريء، اللطيف بالعباد، غافر الذنوب كلها، القائل جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات : 13)، هذا هو الله رب العالمين ، وأما يهوه إله التوراة فهو إله من نسج الخيال، وما سيرة التوراة إلا سيرة هذا الإله الغاضب، الحقود، الذي يسفك الدماء ولا يرتوي، ويُقيم الحروب، وينصر فئة على أخرى، ويتخذ له شعباً دون آخر، ويُسَرُ لرائحة المحرقات، ويُقيم الأخ على أخيه، ويكره الشعوب، ويسحق كل من يُعارضه، اقترن اسمه بإبليس، واليهود عبدوا إبليس من خلال إلههم "يهوه" إله الشر والغضب، وهو إله باطل، قضى على المبادئ الجميلة التي كانت تُنادي بالإله الحق كالكنعانيين، وقد قاوم اليهود إله الكنعانيين واعتبروه كاذباً، وهو الإله الحق، وثبتوا إلههم لنشر ديانتهم الكاذبة والمراوغة، ومن هنا جاء توحيدهم الذي لا يُشير إلى معرفة الله الحق، الواحد الأحد، بل يعني الإنفراد والتخصص بالإله " يهوه " الذين لا يتركون للأمم مجالاً لعبادته، فهو إلههم وحدهم، ومن هنا كان التوحيد اليهودي.

ويؤكد القرآن الكريم رسوخ هذه الروح عند اليهود من خلال سرده لقصة سيدنا موسى عندما ذهب ليكلم ربه فخرج فوجدهم: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾ (الأعراف : 148) .

من خلال هذا الحديث نجد أن كل الأديان كان هدفها الأسمى الأول هو التوحيد وكان هذا تشريعها فهو شرع لنا في توحيد الله، فدين الله واحد وبلادنا هي مهبط الوحي للأديان جميعاً وفيه انتشرت الأديان ومنه انطلقت إلى العالمين ولسنا نعرف نبياً لبث في غير هذه الأرض العربية، وفي أعماق هذه الأرض امتدت جُذور هذه الأديان، ومن هذا الوطن خرج المؤمنون بالأديان السماوية يضربون في الأرض ويُبشرون بهذه الأديان، وينشرون بين الناس قيماً دينية خالدة هي قيم الحق والعدل والمحبة والسلام، وفي أرجاء هذا الوطن تعايشت الأديان الكبرى الثلاثة الإسلام والمسيحية واليهودية، تعايشت لما بينها من روابط قوية متينة، هذه الروابط القوية نبتت من وحدة الأصل ووحدة الهدف، والتقارب القوى في الكثير من الطقوس والعادات. ونجد أن القرآن الكريم قد وقف من هذه المسائل موقفاً تتجلى فيه نظرتان: نظرة مثالية تتعايش فيها الأديان الثلاثة من حيث هي عقائد ونظرة عملية تتعايش في إطار المعتنقون لهذه الأديان الثلاثة.

من حيث المصدر نجد أن القرآن الكريم يُقرر أن الأديان السماوية جميعها قد صدرت عن الذات الإلهية، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يبعث الأنبياء ويُرسل الرسل مبشرين

ومنذرين وهو الذي يكتب الكتب لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وهو الذي يُرسل الرسل يُعلمون الناس الكتاب والحكمة، وهو حينما يفعل ذلك يفعله من أجل تحقيق الحياة الأفضل للجنس البشري والارتقاء به من مستوى حضاري إلى مستوى حضاري أرقى. هذه الوحدة في المصدر وهذه الوحدة في الهدف وهذا التتابع الزمني في بعثة الأنبياء والمرسلين، وهذه الخطوات المرحلية في سلم الارتقاء الحضاري كانت لها ظواهر اجتماعية عني بها ورسخها القرآن الكريم: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ (الشورى: 13).

يقول الشهيد سيد قطب مُعلقاً على هذه الآية الكريمة:

إنه يقرر الأصل الواحد والنشأة الضاربة في أُصول الزمان ويُضيف إليها لمحة لطيفة الوقع في حس المؤمن وهو ينظر إلي سلفه في الطريق الممتد من بعيد فإذا هم على التتابع هؤلاء الكرام: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام وأنه على دربهم يسير، وأنه مستمر في السير في الطريق مهما يجد فيه من شوك و نصب وحرمان من أغراض كثيرة، وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ.

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد السائرين على شرعه الثابت، وانتفاء الخلاف والشقاق والشعور بالقربى الوثيقة التي تدعو إلى التعاون والتفاهم ووصل الحاضر بالماضي والماضي بالحاضر والسير جملة في الطريق.

وإذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ففيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين، ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي يحملها رسولهم الأخير والوصية الواحدة الصادرة للجميع ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ (الشورى: 13)، فيقيموا الدين ويقوموا بتكاليفه ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به ويقفوا تحت رايته صفاً وهي راية واحدة رفعها على التوالي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم حتى انتهت إلى محمد صلى الله عليه وسلم في العهد الأخير [1]

إننا نشعر من هذه الآية السابق ذكرها من سورة الشورى أن دين الله واحد، وبأن شرع الله واحد، وأنه هو ما وصى به جميع الأنبياء وأن هناك أُصولاً واحدة في هذه الأديان جميعاً وأن هذه الوحدة في الأُصول قد صدرت لمن له حق تشريع الأديان، وهو الله سبحانه وتعالى: وقد خاطب الله نبيه محمد ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ**

[1] انظر: في ظلال القرآن: سيد قطب، ص 5 / 3147.

لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: 18) **ويقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾** (المائدة:48) ونحن مع هذه الآيات نشعر بأن لكل نبي شريعة خاصة تختلف عن شرعة نبي آخر،

يقول سيد أمير علي صاحب كتاب روح الإسلام:

إننا إذا استثنينا عقيدة الأُبوة الإلهية لم نجد خلافاً أساسياً بين المسيحية والإسلام فهما في جوهرهما دين واحد وكلاهما وليد القوى الروحية المتشابهة في الإنسانية والحقيقة أن هناك نوعين من العناصر: نوعاً ثابتاً مستقراً يُوجد في كل الأديان ونوعاً يناله التغيير والتجديد ويختلف فيما بين الأديان.

والنوع الثابت المستقر هو الذي يتعلق بالذات الإلهية والغيبيات التي لا يعلمها إلا الله.

والنوع الثاني: هو الذي يتعلق بالإنسان ويتغير بتغير الإنسان وهو الذي من أجله وضعت القاعدة الأصولية التي

تقول: إن الأحكام تتغير بتغير الأديان.

والعناصر الثابتة هي التي تشير إليها الآية القرآنية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** (البقرة:62) .

ويعلق صاحب تفسير المنار على هذه الآية بقوله:

" الآية صريحة في أن أصول دين الله على ألسنة جميع رسله هذه الثلاثة: الإيمان بالله_الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء_العمل الصالح. فثمرة الإيمان منوطة بهذه الثلاثة " .[1]

أما العناصر المتغيرة فيُمثل لها بالعبادات الدينية وبالتحليل والتحريم الديني، من حيث أنها تختلف في دين عنها في

دين آخر وذلك لأنها مرتبطة دائماً وأبداً بالإنسان.

والقرآن الكريم دعا إلى تعايش سلمي بين هذه الأديان. تعايش يقضي على المنازعات وعلى التفرق والانقسام فهو يطلب من المسلمين أن يُؤمنوا بجميع الأنبياء والمرسلين ولا يُفرقوا في هذا الإيمان بين رسول ورسول: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (البقرة: 136) . ثم يطلب من الرسول أن يعرض على أهل الكتاب موقفاً يلتقي فيه الطرفان وترتفع فيه الخصومة ويتحقق بمقتضاه السلام: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: 64) .

غير أن الدعوة القرآنية لم تلق آذاناً صاغية من كثيرٍ من أهل الكتاب، فبقوا على ما هم عليه من عدوان على النبي ودينه ومن عدوان بعضهم لبعض [2]

[1] انظر: تفسير المنار: رشيد رضا ص 1/ 335.

[1] انظر: روح الإسلام: سيد أمير علي، ص77.

المبحث الرابع

الإسلام والأديان السابقة

في هذا المبحث سأتحدث بإذن الله تعالى عن علاقة الإسلام بالأديان السماوية الأخرى مبيناً شمولية الإسلام، وختمه لكل الشرائع وأهم ما يتصف به هذا الدين من وسطية في جميع المجالات، العقائدية، والتشريعية، والأخلاقية.

يعترف الإسلام بالأديان السابقة، ويُوجب على أتباعه أن يعترفوا بها، وبالرسل الذين حملوها إلى أقوامهم، ولكن ذلك الالتزام مرتبط بالماضي، أي الاعتراف بأن هذا الرسول كان نبي الله إلى قومه وأن مبادئه كانت كذا وكذا، وأما فيما يتعلق بالحاضر والمستقبل فإن رسالة الإسلام جبت ما قبلها ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسلام** ﴾(آل عمران: 19) .

وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾(آل عمران: 85) .

وقد حوت رسالة الإسلام ما في الرسالات السابقة من مبادئ، وزادت عليها ما تحتاجه البشرية في كل جوانب الحياة على طول مسيرتها المديدة إلى يوم الدين ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى** ﴾(الشورى: 13) . وقال تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ**

يَدَيْهِ ﴾ (المائدة: **48**) . وقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾ (الفتح: 28) .

يقول صاحب التفسير الوسيط تعليقاً على آية الشورى: (المراد بما شرعه سبحانه على ألسنة هؤلاء الرسل: أصول الأديان التي لا يختلف فيها دين عن دين، أو شريعة عن شريعة، كإخلاص العبادة لله تعالى والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والتحلي بمكارم الأخلاق، كالصدق والعفاف. أما ما يتعلق بفروع الشرائع لتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم وتحريمها على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل في الأصول الثابتة في جميع الأديان وإنما يختلف باختلاف الظروف **والأحوال** [1]) .

ويقول المفسرون في ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ (النساء: 105) أن القرآن الكريم هو الصورة الأخيرة لكتاب الله الواحد المتحد الأصل والوجهة المسايرة لحاجات البشر حتى إذا كشف للناس عن الحقائق الكبرى التي تقوم عليها أسس الحياة انقطع الوحي ليتصرف العقل البشري في حدود تلك الحقائق الكبرى بلا خوف من الزلل ما دام يرعى تلك الحدود ومن ثم فإن الحكم يجب أن يرجع إلى هذا الكتاب الذي يتضمن الباقي من شريعة الله حكمها في كتاب ويصفها في الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم الدين.

---

(1) انظر: التفسير الوسيط: محمد سيد طنطاوي، المجلد 13 ص 21.

وفي قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ** ﴾(التوبة: 33) أن الله أرسل محمداً عليه السلام بالإسلام دين التوحيد والحق الخالد ليعلوا على كل الأديان والمعتقدات بأن يحوي أحسن ما فيها وأن يضيف إلى ذلك ما فيه خير الإنسان في الدنيا والآخرة.

يقول الشهيد سيد قطب: لقد ظهر دين الحق لا في الجزيرة العربية وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها، قبل مضي نصف قرن من الزمان ظهر في إمبراطورية كسرى كلها، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر. وظهر في الهند وفي الصين ثم في جنوب آسيا في ملايو وغيرها وفي جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي.

وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، حتى بعد انحساره السياسي عن كثيرٍ من الأرض التي فتحها وبخاصة في أوروبا وجزر البحر المتوسط. وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله من حيث هو دين. فهو الدين القوي بذاته القوي بطبيعته. الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله. لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصلية، ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح وحاجات العمران والتقدم وحاجات البيئات المتنوعة من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب. وما من صاحب دين غير الإسلام ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى

حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة ﴿ **وكفى بالله شهيدا** ﴾ فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية ووعد الله ما يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل والقيادة في جميع الأحوال. ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم فغير أهله يدركونها ويخشونها ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب)[1] في ظلال القرآن مجلد 6 ص 3330-3331

ومن أجل هذا شمل الإسلام من المبادئ ما لم يرد مثله في أي دين من الأديان المختلفة إذ قد تقدمت البشرية وأصبح ضرورياً أن تعرف حكم الله فيما يعترضها من شؤون، ولهذا حفل التفكير الإسلامي بأفانين من القول في كل مشكلات الحياة.التي تحتاج لتوجيه السماء كالنظم السياسية والنظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية والنظم العسكرية والعلاقات الدولية وغيرها .

يقول الدكتور أحمد شلبي:

ونجد من مبادئ الإسلام السامية، أن الإسلام يهتم بالروح والمادة في الفرد والجماعة، ومن هنا جاء مبدأ لا رهبانية في الإسلام، حيث أن الرهبانية تعطل ما منحه الله للإنسان من

(1) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد 6 ص 3330-3331

قوى التفكير والإرادة والعمل، حيث أن الإنسان المسلم لابد أن يعمل، لا أن يكون عالة على غيره، يعمل له هذا الغير ويطعمه ويكسوه، ومع هذا فموضوع الرهبانية جدير بدراسة مستقلة، لتبرز رأي الإسلام في أولئك الذين لجئوا إلى الكهوف أو المعابد، وحرَّموا الزواج واعتزلوا الناس ظانين أن هذا اللون من الحياة هو العبادة الحقة.

فنحن لا نتبع أولئك الناس في شريعتهم هذه، فهي ليست شرع لنا، ولا يجب علينا إتباعها، كما عبر القرآن الكريم عن طبيعة البشرية السليمة أصدق تعبير عندما قال تعالى: ﴿ **فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ** ﴾ (البقرة : 200)

فقد قسمّ الله الناس إلى قسمين:

أحدهما: يُريد الدنيا فقط.

وثانيهما: يُريد الدنيا والآخرة.

ولم يلتفت الله سبحانه وتعالى إلى جماعة شذت عن الطبيعة البشرية، وأهملت الدنيا إهمالاً تاماً وحسبت أن من الخير لها أن توجه كل اهتمامها للآخرة، فلجأت إلى الصوامع والكهوف وجعلت دستورها التبتل والرهبانية، فجدير بهذه الجماعة أن يهملها الإسلام، لأن سلوكها ليس طبيعياً، والإسلام دين الفطرة والطبيعة. ثم هذا السلوك يتنافى مع توجيهات الله التي أباحت الطيبات وحثت عليها [1].

---

(1) انظر: مقارنة الأديان (الإسلام) د.شلبي: ص 36-37

نتحدث الآن عن موقف أصحاب الأديان السابقة على الإسلام، وكيفية تحريفهم لأصول العقيدة الصحيحة:

أولاً. موقف أمة اليهود:

إن أمة يهود، أمة غلب عليها طابع التفريط والتقصير في هذا الباب، بل هو الغالب عليهم في أكثر الأبواب،

ولعل من أبرز مظاهر تفريطهم وتقصيرهم في هذا الباب أمرين:

الأول: اتخاذهم الأنداد لله عز وجل وعبادة الأصنام.

والثاني: إغراقهم في تشبيه الخالق بالمخلوق، ووصف الله عز وجل بالنقائص التي لا تليق إلا بالمخلوق.

فأمر الأمر الأول: وهو اتخاذهم الأنداد وعبادة الأصنام، فإن القوم لما أنقذهم الله من عدوهم فرعون وجنوده، وجاوز بهم البحر مع موسى عليه السلام وأغرق عدوهم على مشهد منهم، مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مالت نفوسهم إلى الوثنية وطالبوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم مثلها: يقول الله جل وعلا في ذلك: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ [الأعراف: 138]، ثم بيّن لهم موسى عليه السلام ضلال أولئك وبطلان عملهم، وأن الإله الحق هو الله الذي فضلهم على العالمين فقال: ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف: 139-140].

اتخاذهم العجل في زمن موسى:

لم يلق نصح موسى عليه السلام وتذكيره ووعظه من القوم قلباً واعياً أو أذناً صاغية، فما أن تركهم عليه السلام وذهب إلى ربه يناجيه، حتى اتخذوا العجل من بعده إلهاً من دون الله قال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾ [الأعراف: 148] ، ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [البقرة: 51] ، ثم بين تعالى من تولى كبر إضلالهم وصناعة العجل لهم، فقال: ﴿ **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ* فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ** ﴾ [طه: 85-88].

فبيّن تعالى أن الذي صنع لهم العجل هو السامري، ومن العجيب أن كتاب العهد القديم ينسب هذا العمل الشنيع إلى هارون عليه السلام كما جاء في (سفر الخروج): " ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا . لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وآتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من

أيديهم وصوّره بالازميل وصنعه عجلاً مسبوكاً . فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه وقال غداً عيد للرب. فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدّموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب " . [1]. ولقد تكرر من القوم، اتخاذ الأصنام وعبادتها بعد موسى عليه السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأهل الكتاب يعترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات. . .)[2] .

وفي كتاب العهد القديم، إشارات كثيرة لعبادتهم الأوثان والأصنام، من ذلك:

1 . ما جاء في (سفر الملوك الأول) عن عودتهم لعبادة العجل في عهد (رحبعام) [3] يقول السفر: (. . . وعمل عجلي ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ووضع واحدًا في بيت أيل، وجعل الآخر في دان) [4] .

([1]) العهد القديم: سفر الخروج، 32 /1. 6، ص 139.

([2]) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (247/3).

([3]) هو رحبعام بن سليمان – عليه السلام – ملك بعد أبيه.

(4) العهد القديم: سفر الملوك الأول، 12/ 28. 29، ص 558.

2. عبادتهم للأفعى وبعض التماثيل:

يذكر (سفر الملوك الثاني) عن الملك حزقيال أنه: " أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى؛ لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها . . ." (1) .

على أن موسى عليه السلام لم يصنع تمثالاً نحاسياً لحية، وإنما كانت عصاه تنقلب إلى حية تسعى معجزة له، ثم تعود سيرتها الأولى بعد ذلك عصاً يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، لكن لعل بني إسرائيل صنعوا ذلك ونسبوه إلى موسى عليه السلام لتروج عند الناس ويعظموها ويعبدوها .

وأما الأمر الثاني: وهو قولهم بالتشبيه ووصف الخالق بصفات المخلوق:

وهذا أمر مشهور عنهم، حتى عده الشهرستاني (2) من طباعهم الملازمة لهم، فإن القوم أسرفوا في تشبيه الله عز وجل بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالنقائض التي تختص بالمخلوق.

ولقد سجل عليهم القرآن الكريم صوراً من ذلك، وكتابهم الذي بين أيديهم ينضح بالكثير من ذلك، ونحن نذكر فيما يلي نماذج من أقوالهم التي شبهوا فيها الخالق عز وجل بخلقه:

---

(1) المصدر السابق: سفر الملوك الثاني، 4/18، ص 616.

(2) انظر: الملل والنحل: الشهرستاني، ص 106/1.

1. فمن ذلك: (وصفهم الله بالفقر).

وهي صفة لا تليق بخالق البشر، ولكن القوم لا عقول لهم ولا حياء عندهم، يقول عز وجل في ذلك: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ . [آل عمران: 181].

2. ومن ذلك: (وصفهم له بأن يده مغلولة).

قال عز وجل ذاكراً قولهم هذا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64].

3. وصفوه بأنه: (يحزن، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول: " ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم " [1].

[1] العهد القديم: سفر التكوين، 5/6 . 8، ص 10.

4 . ووصفوه: (بالتعب والاستراحة) تعالى الله عن ذلك:

جاء في (سفر الخروج): " أذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملاً أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك، ونزيلك الذي داخل أبوابك؛ لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه"(1) .

وفي سفر (التكوين): " فأكملت السماوات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً " . (2) .

5 . وقالوا: (بأنه إنسان وصارع يعقوب عليه السلام إلى الفجر) .

ففي (سفر التكوين): " فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه فانخلع حُق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني فقال له: ما اسمك، فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت، فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي " (3) .

---

(1) المصدر السابق: سفر الخروج، 20/ 8 . 12، ص 119.

(2) المصدر السابق: سفر التكوين، 2 / 1 . 3 ص 5.

(3) المصدر السابق: 32 / 30.24 ص 54.

6. وصفوه بما يفيد أنه: لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بني إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بني إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم.

ففي (سفر الخروج): أن الرب كلّم موسى عليه السلام وقال له فيما قال: " فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين أنا الرب، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب " (1).

7. أنهم: جعلوا له أبناء كما أن للمخلوق أبناء:

جاء في (سفر التكوين): " وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهم حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا " (2). وحكى الله عز وجل عنهم أنهم جعلوا له ابناً فقال: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ** ﴾ [التوبة: 30].

ثانياً. موقف النصارى:

لقد ضلت أمة النصارى في هذا الباب ضلالاً بعيداً، ولعل أمة من الأمم لم تضل في دينها وربها وإلهها كما ضل الذين قالوا إنا نصارى. ولا عجب فالضلالة صفتهم المميزة لهم،

(1) المصدر السابق: سفر الخروج، 12 /14.13 ص 105.
(2) المصدر السابق: سفر التكوين، 6 /1. 2، ص 11.

كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: " اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضُلال" (1) . قال ذلك في تفسير قول الله عز وجل: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة: 7]، ولعل من أعظم ضلالهم في باب توحيد الله وصفاته أنهم:

1. شبهوا المخلوق بالخالق:

وأضفوا عليه من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله عز وجل ولا يصلح إلا له سبحانه فوصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: " إنه يخلق ويرزق، ويغفر، ويرحم، ويتوب على الخالق ويثيب ويعاقب "(2)، وهذه الصفات من خصائص الربوبية، وصفات الألوهية التي لا تكون إلا لله سبحانه.

وذلك أن هذه الأمة الضالة، جعلت المسيح عليه السلام هو الله، كما ذكر الله عز وجل قولهم هذا وكفرهم به فقال: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ [المائدة: 17]، وتارة جعلوه ابناً لله سبحانه وتعالى عما يقول المبطلون، وعن قولهم هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة: 30].

وقالوا تارة أخرى إنه شريك لله وجزء من ثلاثة يتكون منها الإله، كما ذكر الله قولهم هذا وكفرهم به أيضاً فقال: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ**

---

(1) أخرجه الترمذي في سُننه: كتاب التفسير، باب من سورة الفاتحة رقم (4029) ص 4 /271.

(2) انظر: الوصية الكبرى: لابن تيمية، ص 4.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73] ، فألهوا المسيح عليه السلام، وجعلوه شريكا لله، وعبدوه من دونه، بل وصفوه بأخص صفات الألوهية والربوبية من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة، وبذلك فاقوا عبّاد الأصنام والأوثان الذين قالوا في معبوداتهم: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾** [الزمر: 3]، ولم يضيفوا إليها شيئاً من خصائص الربوبية كالخلق والرزق ونحو ذلك، بل أقروا بكل ذلك لله وحده كما قال عز وجل: **﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾** [يونس: 31]. ويقول تعالى: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾** [العنكبوت: 61]، ويقول تعالى: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾** [العنكبوت: 63]، و يقول تعالى: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)** [لقمان: 25].

أما هؤلاء فلئن سألتهم عن شيء من ذلك ليقولن المسيح، فهو عندهم الإله الخالق المحي المميت، باعث الرسل، ومنزل الكتب، حكى الإمام ابن القيم عنهم أنهم قالوا: " وليس

المسيح عند طوائفنا الثلاثة هكذا بنبي ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم، ومؤيدهم ورب الملائك". (1).

وفي قرارهم الذي قرروه في (مجمع نيقيه) (2) الذي عقدوه سنة (325) م، وسموه بـ (الأمانة) ونصوا فيه على ألوهية المسيح عليه السلام، وصرّحوا بأنه هو الذي سينزل للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم فقالوا: "وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم "، وقالوا: " وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء". (3).

يقول أحد قساوستهم في رسالة إلى أبي عبيدة الخزرجي (4)، مصرحاً بألوهية المسيح وأنه خالق السماوات والأرض: " أما بعد حمداً لله الذي هدانا لدينه، وأيدنا بيمينه، وخصنا بابنه ومحبوبه، ومد علينا رحمته بصلبه المسيح إلهنا، الذي خلق السماوات والأرض وما بينهن، والذي أمدنا بدمه المقدس ومن عذاب جهنم وقانا . . . " (5).

---

(1) انظر: هداية الحيارى: ابن قيم الجوزية، ص 269.

(2) سمى بذلك نسبة إلى مدينة نيقيه من أعمال إسطنبول التي اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من قراراتهم القول بإلهية المسيح.

(3) نقلاً عن الشهرستاني: الملل والنحل، ص 28/2.

(4) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الخزرجي الساعدي كان مشهورا بالذكاء والنبل، مات بفاس بالمغرب عام 582هـ.

(5) انظر: أبو عبيدة الخزرجي: بين المسيحية والإسلام، ص 72.

وقال مخاطباً أبا عبيدة الخزرجي داعياً إياه للإيمان بألوهية المسيح الخالق:" وما عقائدكم كلها إلا حسنة، وكان عندكم عدل كثير في أصل دينكم، وخير شامل، فلو آمنتم بالمسيح وقلتم: إنه هو الله خالق السماوات والأرض لكمل إيمانكم " . (1) .

وهكذا نرى النصارى يصفون المسيح عليه السلام بصفات الربوبية المختصة برب العالمين عز وجل وهذا أمر انفردوا به من بين العالمين، ولم يقتصر الأمر على المسيح عليه السلام، بل جعلوا لغيره من الخلق بعض صفات الله تبارك وتعالى، فجعلوا مريم عليها السلام آلهة؛ لأنها أم الله بزعمهم، ووصفوها بالجلوس على العرش مع الله عز وجل، وسألوها ما لا يُسأل إلا من الله عز وجل.

يقول الإمام ابن القيم: " وأما قولهم في مريم: فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله ووالدته في الحقيقة، وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه، قال: والنصارى يدعونها، ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب " . (2) .

وهذه الأمور لا يملكها إلا الله عز وجل، ولا يُسألها إلا هو سبحانه، ولقد أشار القرآن الكريم إلى قول النصارى بألوهية مريم في قوله تبارك وتعالى مخاطباً عيسى عليه السلام:
﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ

(1) انظر: المصدر السابق: ص 87.
(2) انظر: هداية الحيارى: ابن قيم الجوزية ص 261.

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ . [المائدة: 116].

بل خصوا كنائسهم وباباواتهم ومطارنتهم ببعض خصائص الله عز وجل، وهي مغفرة الذنوب ودخول الجنة، أو الحرمان منها، ففي المجمع الثاني عشر من مجامعهم المعقود في سنة (1215م) قرروا: " أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء" . (1)، وبناء على هذا القرار قامت الكنيسة بإصدار ما يسمى بـ (صكوك الغفران) .

يقول أحد قساوستهم في هذا: "وقد جعل الله في أيدي المطارين ما لم يجعله في يد أحد، وذلك أن كل ما يفعلون في الأرض يفعله الله في السماء، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلون التوبات ويعفون عن السيئات بأيديهم صلاح الأحياء والأموات" .(2) . ماذا أبقوا لله عز وجل.

2. ومن ضلالهم في هذا الباب أيضاً أنهم سبوا الخالق عز وجل وتنقصوه وذلك من وجهين:

الأول: قولهم إنه اتخذ ولداً، حيث قالوا: إن المسيح ابن الله، كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾** . [التوبة: 30]، وقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد، فقال: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾** . [البقرة: 116]، وقال سبحانه : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا, لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا,**

(1) انظر: أبو زهرة: النصرانية، ص 148.

(2) انظر: أبو عبيدة الخزرجي: بين المسيحية والإسلام، ص 91.

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا, أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا, وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا, إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ .

[مريم: 88-93]، فأنكر قولهم، ونزه نفسه عن أن يكون له ولد .

وبيّن سبحانه في آية أخرى أن الولد لا يكون إلا من صاحبة، وهو سبحانه لا صاحبه له، فقال عز وجل: ﴿ **بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنعام:101] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: " أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، أي: الولد إنما يكون متولدًا عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة ولا ولد . . . " (1) .

وقد بيّن سبحانه في الحديث القدسي، أن من نسب إليه اتخاذ الولد فقد شتمه وسبه بقوله ذلك، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال الله كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولدًا " (2) .

(1) انظر: تفسير ابن كثير 302/3.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب (وقالوا اتخذ الله ولدا...)، رقم (4482)، ص 1354/3.

الثاني: زعمهم أن الله (تعالى عن قولهم علواً كبيرًا)، " نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب " (1).

وقال القس القوطي في رسالته إلى أبي عبيدة الخزرجي يشرح فيها مذهبه: "، فهبط بذاته من السماء والتحم في بطن مريم العذراء البتول أم النور فاتخذ لنفسه منها حجاباً كما سبق في حكمته" (2).

يقول الإمام ابن القيم: " . . . إن هذه الأمة (أي النصارى) ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة.

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءًا منه، وإلهاً آخر معه، ونفوا أن يكون عبدًا له.

والثاني: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه (تعالى عن قولهم علواً كبيراً)، نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة وأقام تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو (3) وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً يمص الثدي، ثم صار إلى أن لطمت اليهود خدّيه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لصين، وألبسوه إكليلاً من الشوك وسمّروا يديه ورجليه،

---

(1) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل، 28/2.

(2) انظر: أبو عبيدة الخزرجي: بين المسيحية والإسلام، ص 83-84.

(3) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط، انظر: لسان العرب 306/15.

وجرّعوه أعظم الآلام، هذا هو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم" .

وذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال فيهم: " أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله عز وجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر " .[1] .

(1) انظر: ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص 278/2.

الفصل الثانـي

العـبـــــادات

في هذا الفصل سأتحدث عن العبادات في الأديان جميعاً، مبيناً أن العبادات مناسك مشتركة في كل الأديان، وإن اختلفت في شكلها وأقوالها .

ومبيناً أهمية العبادة في حياة الفرد والمجتمع.

وسيكون الحديث عن ذلك من خلال المباحث الآتية:

تمهيـد :

المبحث الأول: الصلاة.

المبحث الثاني: الصيام.

المبحث الثالث: الزكاة.

المبحث الرابع: الحج.

تمهيد:

إن مهمة الجانب التعبدي للإنسان تعتبر ركناً أصيلاً في المنهاج الإلهي، الذي شرعه الله تعالى على غاية العلم والحكمة، وجعله بناءً محكماً يشد بعضه بعضاً، ويؤدي كل جانب فيه عمله الخاص أو العام على غاية التفرد، والتفوق والامتياز، ويظن بعض الناس أن العبادات في المنهاج الإلهي هي ضروب من الطقوس، أو المراسيم الشكلية فُرضت على العباد فرضاً لغاية دينية محضة، هي إظهار الذل والخضوع لله تعالى فقط، وليس لها وظائف عظمى تابعة.

والحق أن العبادات التي سنها الله لنا ذات تأثير شمولي مشرق، ولها أخطر المهمات في تمكين الحقائق العليا للرسالات الإلهية، وتحقيق الفطرة الإنسانية على وجهها الصحيح المستقيم، طالما تمثلت فيها عناصر الحب والذل، والرجاء والخوف، ونحوها . ومعلوم لدى العلماء أن للعبادة مقصدًا أصلياً، وهو التوجه إلى الواحد الصمد، وإفراده بالعبادة في كل حال، طلباً لرضا الله، والفوز بالدرجات العليا، وهناك مقاصد تابعة للعباد مثل صلاح النفس واكتساب الفضيلة. (1) .

فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله تعالى، وإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بذكره، قال تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه: 14]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت: 45]، يعني أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله هو المقصود الأصلي، ثم إن لها مقاصد تابعة

(1) انظر: عبد الستار فتح الله: المنهاج القرآني في التشريع، ص 455.

كالاستراحة إليها من أنكاد الدنيا وإنجاز الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة، وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية وهي الانقياد والخضوع لله (1).

وإذا تأملنا في مهمة العبادة يمكننا أن نستخلص الآتي:

أولاً. تثبيت الاعتقاد:

إن روح العبادة هو إشراب القلب حب الله تعالى، وهيبته، وخشيته، والشعور الغامر بأنه رب الكون ومليكه، والتوجه دائماً بما شرع من شعائر ونسك، باعتبارها مظهراً عملياً دائماً لصدق الإنسان في دعوى الإيمان، وتذكيراً مستمراً بسلطان الإله الأعلى، وإلهاباً متجددًا لجذوة اليقين في الله، ورجاء فضله وثوابه.

ولنأخذ مثالاً عبادياً لتثبيت معنى التوحيد، وإجلال الله تعالى، وهو (الأذان) وقد شرع بدخول أوقات الصلاة المفروضة، فهو يتكرر في اليوم والليلة خمس مرات، وينادي به منادي المسلمين صوتاً في كل مكان يوجد به تجمع إسلامي، ولو كان أدنى الجمع من المسلمين، بل شرع مع ذلك للمسافر، والمنفرد، ولو كان في بادية لما يمثله من معان عظيمة ليس مجرد الإعلام بدخول الوقت.

---

(1) انظر: القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص 48-49.

إن المؤذن حين ينادي بصوته الأعلى: (الله أكبر الله أكبر)، ثم يكررها، يطلب شرعاً أن يردده معه كل مسلم ومسلمة حين يسمعون هذا القول الأجل، لينسكب في مشاعر الجميع وفي أوقات متكررة متقاربة معنى الكبرياء المطلق لله رب العالمين، وأنه تعالى فوق كل شيء وأكبر من كل شيء فينبغي أن يعتز به وحده، ويلوذ بحماه وكنفه، ويستعلي فوق أعناق الطواغيت والجبارين بهذا النداء الجهير، الذي أراد الله عز وجل أن يتواطأ عليه المجتمع كله، وأن يظل حتى المنفرد على صلة دائمة به.

فإذا تقرر هذا المعنى عاد النداء لأجل أن يملأ الآفاق: (اشهد أن لا إله إلا الله) وهو تذكير يومي بالعهد والميثاق الذي أعطاه العبد لربه بأن لا يعبد ولا يطيع إلا ربه الأكبر، المتفرد بالكبرياء في السماوات والأرض.

ثم يأتي الشق من الشهادة: (أشهد أن محمدًا رسول الله) وهو كما علمت إقرار متكرر أيضاً بالطريق الذي تؤخذ عنه العبادة المشروعة، والتي لا تصح إلا بالتلقي عن الوحي الإلهي الذي جاء به المعصوم صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي ثالثاً: الدعوة إلى الصلاة نفسها في جملتين فقط: (حي على الصلاة، حي على الصلاة)، لأن الأذان كما قلنا أبعد مدى، وأشمل آثارًا .

ثم يأتي رابعاً: الدعوة العامة إلى الفلاح المطلق، المتمثل في الاستجابة لهذا الدين الإلهي الأغر، ومثله وتعاليمه، وفي مقدمتها الصلاة بداهة. ولذلك يعود الشارع بالمؤذن إلى نقطة البد ليكبر في الختام للتأكيد على تفرده تعالى بالكبرياء، وإعلان التوحيد بصيغة الإقرار

والإثبات بعد صيغة الشهادة السابقة: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله)، معنى هذا أن الأذان وحده يجري على ألسنة المؤمنين، ويسكب في ضمائرهم، ويغرس في حياتهم ووجدانهم إفراد الله تعالى بالكبرياء (ثلاثين) مرة يومياً، وإفراده تعالى بصفة الألوهية التي تفرده بالعبادة والطاعة (خمس عشر) مرة، وهو نداء لا يتقيد بحدود معبد، أو مسجد، وإنما ينطلق ليدخل كل بيت، ويصافح كل سمع، ويطرق كل قلب يريد الهدى.

وإذا كان هذا هدف الوسيلة في تقرير الأصول العليا فإن القصد الذي تؤدي إليه (وهي الصلاة) أعظم شأناً، وأتم مظهراً، فقد فرضها الله على كل بالغ من الذكور والإناث خمس مرات في اليوم والليلة، وهي تبدأ بالتكبير ويطلب المصلي بتكرار هذه الجملة (الله أكبر)، في صلوات الفرض فقط (أربعة وتسعين مرة)، عدا ما يقرع سمعه بعددها من صلوات إمامه إذا صلى جماعة، فضلاً عن السُنن الراتبة والنوافل المطلقة وهي أضعاف ذلك.

ثم إن العبد يتلو كتاب ربه في صلاته، ويحني له ظهره راكعاً، ويخر بجبهته ساجدًا، ويناجي مولاه مُعظماً، ومسبحاً، وحامدًا، وداعياً، وليس هناك في الوجود أسمى وأجل من هذه الشعيرة في ربط العبد بهذا السلطان الإلهي، وإلهاب نفسه بمعاني عظمته وسموه [1].

إن الصلاة عندما تُؤخذ على وجهها الصحيح –واحة وراحة يسكن إلى ظلها المؤمن كلما مسه تعب الحياة ولغوبها، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا**﴾

(1) انظر: عبد الستار فتح الله: المنهاج القرآني في التشريع، ص 458.

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج: 19-23].

ثانياً . تأسيس وتثبيت القيم الأخلاقية:

فقد جاء المنهاج الرباني في العبادة ليتمم مكارم الأخلاق، ويدعو الناس إلى المثل العليا، والفضائل الكريمة كالصبر، والمثابرة، والسماحة، والسخاء، والصدق، والتراحم، والمواساة، والأمانة، وغيرها من القيم التي تقوم عليها قيمة الفرد والمجتمع، والتي تحقق للإنسان سعادته في الدنيا فضلاً عن الآخرة، وللعبادات بأنواعها مهمة عظيمة في تثبيت هذه الأخلاق، وتدعيمها، وغرسها في نفس المؤمن ووجدانه، (فالصلاة) مثلاً تعود المؤمن الصبر، والدأب، و الإخلاص والنظام، حتى تصبح جميعاً خُلقاً راسخاً في النفس، فالمسلم النائم حين يقوم من لذة النوم على نداء المؤذن (الصلاة خير من النوم)، وكذلك حين ينسحب من ضجيج الأسواق والبيع والشراء ملبياً لنداء (حي على الصلاة)، ثم لا يزال دأبه هكذا عبر الساعات، والأيام، والأعوام، فهذا وأمثاله لا بد أن تتربى فيهم هذه المعاني الخُلقية العلية.

(والزكاة) التي أُخذت من معنى الزيادة، والنماء، والتطهير، لها —هي الأخرى – أكبر الأثر في تنقية الخلق من زخم الشح والبخل والإمساك، وفي طبعه بطبائع البذل، والعطاء، والسخاء، كذلك تستل سخيمة صدور المحتاجين، وتُبدل به شيئاً من خُلق الحب والمودة، أو على الأقل سلامة الصدر، فتشيع في المجتمع تبعاً لذلك كل علائق التداني والتقارب، وتداخل

صلات الناس بمشاعر الألفة، وإلى مثل هذا يشير قوله تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ [التوبة: 103].

(والصوم) له عمله الأساسي في تربية الإرادة الإنسانية والضمير الحي اليقظ الذي يتعامل على أساسٍ من رقابة الله تعالى له، وإطّلاعه عليه، فضلاً عن غرس خليقة الصبر، والضبط النفسي بالإمساك الطويل عن شهوتي البطن والفرج، وبالكف عن اللغو، والصخب، والقدرة على تغيير عاداته حتى لا يتعود الجمود، أو تستعبده عاداته وتقاليده (1) .

ثالثاً . إصلاح الجانب الاجتماعي:

ويظهر ذلك في الصلاة ودورها في إيجاد العلاقات الاجتماعية.

وذلك واضح في الحكمة من صلاة الجماعة، لأن اجتماع المسلمين راغبين في الله، راجين، راهبين، مسلمين وجوههم إليه، خاصية عجيبة في نزول البركات، وتدلي الرحمات فيحدث التعاون، والتعارف، والوحدة والاجتماع على فعل الخير.

ثم تأتي صلاة الجمعة: فتجمع أهل الحي على هيئة جامعة أكثر من ذلك في كل يوم جمعة، حيث شرع الله لنا خطبتها تذكيراً وتعليماً للمسلمين بما يصلح دينهم ودنياهم، كحد أدنى للتثقيف العام في أمور الدين، ثم تأتي صلاة العيد، فتجمع أهل المدينة كلهم مرتين في السنة

(1) انظر: المصدر السابق: ص 460.

في عيد الفطر والأضحى، يخرجن الأبكار والعواتق (1)، بل والحُيّض يشهدن الخير ودعوة للمسلمين، ويعتزلن المصلى كما جاء في الحديث الصحيح الذي ترويه أم عطية (2) رضي الله عنها، قالت: " أُمرنا أن نُخرج العواتق وذوات الخدور. (3) " (4).

هذا عدا ما شرعه تعالى لنا من صلوات جامعة في مناسبات شتى، كالاستسقاء، والخسوف، والكسوف، والجنائز، والتراويح في رمضان. إن الصلاة لو وعي المسلمون حقيقتها لهي توجيه وتنظيم اجتماعي كامل، يتمثل فيه المجتمع الكبير، بقدر ما يُحسن المسلمون هذه الصلاة، وما تعنيه من معان وتوجيهات، بقدر ما يري لهم إحسان الحياة في اجتماعاتهم، ولا فرق في هذا المنهاج بين المسجد والمجتمع، فكلاهما تجمع يجب أن يخضع لدين الله وتعاليمه (5).

أما الزكاة: فهي في حقيقتها واجب مالي يُؤخذ من الأغنياء ليُرد على الفقراء وذوي الحاجة من الغارمين، والأرقاء وغيرهم، وهي بذلك تمثل الحد الأدنى المفروض فرضاً للتعاون

(1) العواتق: جمع عاتق وهي التي عتقت من الخدمة أو من قهر أبويها. انظر: مختار الصحاح، ص 411.

(2) هي نسيبة بنت الحارث، من فقهاء الصحابة، توفيت (70هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء 3 / 161.

(3) ذوات الخدور: الستور.

(4) ذوت الخدور: الستور.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى، رقم (981) ص 9/2.

الاجتماعي، والتكافل الاقتصادي بين أبناء الأمة الواحدة، لذلك جعل الله تعالى معظم مصارفها اجتماعية بحتة، بأوسع المدلولات الاجتماعية في القديم أو الحديث على السواء، وكما جاءت صلاة العيد لتوسع دائرة الاجتماع في الصلاة، تأتي هنا أيضًا (زكاة الفطر) لتوسع قاعدة التكافل، والتعاون إلى أقصى حد .

أما الأثر الاجتماعي لفريضة (الحج) فواسع شامل، ولا زالت آثاره تظهر كل يوم بجديد من حكمة الله تعالى في تشريعه، وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من ذلك، قال تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ** ﴾ [البقرة: 198].

روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: (كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتاجروا في موسم الحج، فسألوا رسول الله فنزلت الآية: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** ﴾ [البقرة: 198] [1].

وقال تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ** ﴾ [الحج: 27-28].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب ليس عليكم جناح (4519)، ص 186/5.

والمنـافع المشـهودة كلمـة جامعـة، تشـمل المنـافع الروحيـة، والمادية والاجتماعيـة، والسياسية والثقافية، والاقتصادية وسائر ما يطلق عليه اسم (المنفعة)، وقد جُعلت غاية من غايات الحج وتقديمها على ذكر الله تعالى إيذان ببالغ أهميتها في مراتب المنافع والحكم الشرعية، وإن من أعظم هذه الفوائد جمع أطراف الأمة المسلمة كل عام، وما يحققه من استنفار جزء من كل إقليم سنوياً ليركبوا الأخطار والأسفار، ويقطعوا السهول والقفار، أو يمتطوا الأجواء والبحار، ويتركوا الأولاد والأهل والديار فيجتمع المسلمون من أطراف الأرض، ويلتقي الشرقي بالمغربي، والمصري بالهندي، في مؤتمر جامع، ورحلة مباركة، وليحققوا عملياً دعوة القرآن بالسير في الأرض، والسياحة في الآفاق، ومطالعة المشاهد المقدسة، ومنازل الوحي، وآثار النبوة منذ أبي الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد، صلى الله وسلّم عليهم جميعاً، ثم مدارج الصحابة رضوان الله عليهم، التي تهب المسلمين منها روح الإخلاص، والبذل، والعطاء، والانقياد المطلق لأمر الله عز وجل [1].

ومن ناحية أخرى فالحج نظام: يُوجب على الجميع زياً واحدًا، وحركة واحدة، وكلمة واحدة، وطاعة واحدة وبتثبيت الاعتقاد، والأخلاق، وإصلاح الاجتماع تأخذ العبادات الإسلامية دورها العظيم في بناء الحياة الإنسانية على ارفع القواعد، وأنبل الغايات، وأكرمها

([1]) انظر: عبد الستار فتح الله: المنهاج القرآني في التشريع ص 465.

وأطهرها، وتأخذ بالإنسان إلى أفق أرفع من التراب والطين، ومتاع الحياة الفانية، حيث تربطه بالحي الباقي، وبالنعيم الخالد، فهي غسيل مستمر لأدران المادة، وتهذيب لطغيانها .

وعبادات الإسلام تقوم في أساسها على مراعاة الرقابة الإلهية، وابتغاء الآخرة، دون واسطة بين العبد وربه في العبادات كلها، وحررت الإنسان من عبودية الكهانة، وطقوسها ورسومها (1)، ومنهج القرآن في العبادة مبنى على الحكمة والاعتدال والاستقامة التي هي أبرز ملامح الوسطية. (2)

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس: **61 ـ 62**)

تحدثنا سابقاً أن من أعظم مهمات الأديان ودعوة الأنبياء توحيد الله ثم عبادته وحده دون غيره، إذن لا عجب كما يقول د . يوسف القرضاوي: أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين وإرسال المرسلين وإنزال الكتب المقدسة هو **تذكير** الناس بعهد الله لهم بعبادته وحده ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول: **﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ بهذا دعا قومه نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وكل رسول بعث إلى قوم مكذبين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** (النحل : **36**)، **وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا**

---

(1) انظر: المصدر السابق: ص 468.

(2) انظر: علي الصلابي: الوسطية في القرآن، ص392.

فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25)، **وقال تعالى بعد أن ذكر قصص طائفة كبيرة من الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾** (الأنبياء: 92) **وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾** (المؤمنون: 51 ـ52).

وقد أمر الله نبيه محمداً بقوله ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: 99) **فالتكليف بالعبادة لازم له حتى يلحق بربه لم تسقط عنه بسمو الروح ولا بالاتصال القوي بالله وهكذا ظل حتى في مرض موته عابداً لله. (3).**

لهذا آثرنا أن نتحدث في هذا الفصل عن العبادات كقاسم مشترك لكل الأديان السماوية: عاقدين مقارنة لكل عبادة بين هذه الأديان، ولكن قبل أن نتحدث عن تصنيفات العبادة وعقد المقارنة بين الأديان بخصوصها نود أن نتعرف على سر تكليف الله للإنسان بالعبادة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا فرض الله علينا عبادته، وما سر تكليفنا بهذه العبادة، وعلى من يعود النفع من هذه العبادة؟ على الله أم على الإنسان.

(3) انظر: د. يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص 23.

بداية نقول أن الله لا تنفعه عبادة العابدين ولا يضره إعراض المعرضين: وقد أخبرنا الله على لسان سليمان ﴿ **قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ (النمل: **40**).

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ (لقمان: 12).

وقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ (آل عمران:97).

وقال عز وجل في الحديث القدسي: " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً " (1).

أما لماذا فرض الله علينا عبادته.

فإن الإجابة كامنة في طبيعة الإنسان وطبيعة مهمته في الأرض والغاية التي أُعد لها من وراء هذه الحياة:

ونلخص الإجابة في النقاط الآتية:

1. العبادة غذاء الروح.

2. العبادة حق الله على عباده.

3. العبادة ابتلاء من الله لصقل الإنسان.

4. العبادة مطلوبة لذاتها .

5. العبادة فيها صلاح النفس.

6. العبادة لله استعلاء لنفس الإنسان العابد .

التوجيهات القرآنية في مجال العبادة:

إن الجاهلية أفسدت العقائد والأفكار، وأفسدت العبادات والشعائر، وأفسدت الأخلاق والآداب، وأفسدت النظم والتقاليد، وأفسدت الحياة كلها، وأصابت الأديان كلها فانحرفت عن الصراط المستقيم.

وعندما أراد الله أن يبعث سيد المرسلين بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، كانت الدنيا مليئة بالعبادات والشعائر بعضهما بقايا أديان سماوية، وبعضهما إضافات بشرية، وبعضها مبتدعات شيطانية، ففقد معنى التعبد وروحه ومعنى الإخلاص لرب العالمين. وأصبحت البشرية ضائعة بين أديان تشتت وتعنتت وتزمتت، وأخرى ترخصت وغلت في الترخيص، وأصبحت الديانة كأنها لهو ولعب، وأصبح بعض البشر لا دين لهم. فلما جاء الإسلام، لم يحاب الغالين، ولم يوافق المنحرفين، بل شرعه الله (دِينًا قِيَمًا) لا عوج فيه، ولا غلو ولا تقصير؛ بل كان كما قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ**

مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الأنعام: 161-164].

إن في القرآن الكريم عدة توجيهات ومبادئ إصلاحية كانت ولا تزال هي حجر الأساس، الذي يقوم عليه صرح العبادة الشعائرية في الإسلام (1).

وهذه الإصلاحات، والتوجيهات، والمبادئ العظيمة تدل بكل وضوح على وسطية القرآن في مجال العبادة. **ومن هذه التوجيهات في مجال العبادة.**

أولاً. لا يُعبد إلا الله:

في الفترات التي طال فيها الأمد على دعوة الرسل فنُسيت أو حُرّفت، ضل الناس وعبدوا أنواعا من الآلهة لا يكاد العقل يصدقها . فهناك قوم عبدوا الشمس، كما حكى القرآن عن ملكة سبأ وقومها على لسان هدهد سليمان: ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل: 24]، وهناك طائفة عبدت الجن كما قال تعالى: ﴿ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ** ﴾ [سبأ: 41].

(1) انظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص 130.

وهناك من عبد الأصنام والأوثان واشتهر بذلك مشركو العرب، ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن بسيفه في وجوهها وعيونها ويقول: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: 81]، وهي تتساقط على رؤوسها، ثم أمر بها فأُخرجت من المسجد وحُرقت.

وضل اليهود والنصارى عن طريق التوحيد، وزحفت عليهم الوثنيات فأفسدت عليهم دينهم، ونسب اليهود إلى الله ما لا يجوز أن يُنسب من صفات النقص والندم والتعب، ومر بنا ذلك بالتفصيل وأصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية، والمهم أن القوم عبدوا المسيح الذي كان من أشد الناس عبادة لله، واعترافاً بعبوديته لربه: واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ذلك هو الشرك الذي انتشر في الآفاق قبل نزول القرآن، وتلك هي الوثنية الجاهلية التي سيطرت على عقول الناس وأفكارهم وتصوراتهم وعقائدهم.

وجاء الإسلام يدعو إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة كل ما سواه ومن سواه من الآلهة المزعومين، والأرباب المزيفين، سواء كانوا من البشر أم من الجن أم أي عالم من عوامل المخلوقات العلوية والسلفية. إن القرآن الكريم بيّن التوحيد بأنواعه، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة. إن سر الإسلام على سعة تعاليمه يتجلى في دستوره الخالد: القرآن الكريم، وسر هذا الدستور يتركز في الفاتحة: أم القرآن والسبع

المثاني، وسر هذه الفاتحة يتلخص في هذه الآية الكريمة: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: 5].

إن أول وصية في القرآن، وأول مبدأ يُبايع عليه الرسول كل من اعتنق دينه هو: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ [النساء: 36].

وأول ما دعا إليه رسول الإسلام ملوك الأرض وأمراءها هو هذه القضية الكبرى: أن يعبد الله وحده لا شريك له وأن تطرح الآلهة والأرباب التي أخذها الناس من دون الله، فأذلوا أنفسهم لمن لا يستحق الذل والخضوع، ومن هنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم، يختم رسائله إلى قيصر والنجاشي، وغيرهما من أصحاب الملك والإمارة بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: 64].

بل عد القرآن أن هذه الدعوة هي دعوة الرسل جميعاً، فكلهم دعا قومه إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت، وكل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت، فهما معبودان لا ثالث لهما: إما الله وإما الطاغوت، ومن استكبر عن عبادة الله سقط حتماً في عبادة الطاغوت.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: 36].

وقال سبحانه مخاطباً خاتم رسله محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: 25].

شدد الإسلام حملته على الشرك، وقعد له كل مرصد، وحاربه بكل سلاح، وقرر أنه الإثم العظيم، والضلال البعيد، والجرم الأكبر، والذنب الذي لا يُغفر قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ [النساء:48]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا**﴾ [النساء:116].

وبيّن القرآن الكريم أنه ليس في العالم المخلوق شيء يستحق أن يسجد له الإنسان أو يتضرع إليه أو يرجوه أو يخشاه، فالملائكة عباد الله خاشعون خاضعون حيث يقول تعالى: ﴿**لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: 19-20]، وقوله تعالى: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: 27-28].

والبشر وإن علا سلطانهم، أو عظم قدرهم، أنبياء كانوا أو سلاطين، هم أيضًا عباد الله، لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم، ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا، والعبودية هي الوصف اللازم لهم جميعاً: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ**

آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: 93-95].

والشمس والقمر والنجوم إن هي إلا كواكب مسخرات بأمره تعالى، لا يجوز أن يُحني صُلب من أجلها راكعاً، أو يخّر وجه من أجلها ساجدًا: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [فصلت: 37].

وكل ما يدعي من دون الله في الأرض أو السماء هو مخلوق عاجز لا قدرة له، محتاج لا قيام له بذاته، ضعيف لا يقوى على حياة نفسه قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾ [الحج: 73]، وقال تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ [الإسراء: 56-57]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الأعراف: 194].

ثانياً . تحرير العبادة من رق الكهنوت:

إن رجال الدين جعلوا من أنفسهم في الديانات النصرانية واليهودية وسطاء بين الناس وبين الله.

ومن ثم قيدوا العبادات بمكان معين، يدخل في سلطتهم لا تجوز إلا فيه وقيدوها بوسيط معين، يقوم بعملية السرقة من أموال الناس باسم الدين، وجعلوا لذلك مراسيم وطقوس كهنوتية خاصة لا تُقبل بدونها .

وقد بالغ رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى في فرض هذه المظاهر الكهنوتية فعلقوا في معابدهم رسوماً وتماثيل للعذراء والمسيح، وعدتها الكنيسة شعائر تعبدية واجبة التقديس.

وكان من أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدرًا للثروة يبيعون منها قراريط وأسهماً لمن يدفع الثمن المعلوم، وعلى قدر المدفوع يكون عدد الأسهم.

ومن الطرائف اللاذعة ما حكوا أن أحد الأثرياء اليهود أراد أن يُقابل هذه السخريات العجيبة بسخرية أمرّ وأعجب، فقد ذهب إلى أحد البابوات ولم يشتر منه الجنة، كما كان يفعل المسيحيون، ولكنه اشترى منه صفقة أخرى هي: جهنم! فباعها له بثمن بخس؛ لأنها سلعة لا يرغب فيها أحد؛ ولكن اليهودي الماكر أعلن للمسيحيين جميعا: ألا يبالوا بشراء الجنة بعد اليوم، لأنه هو قد اشترى من البابا جهنم، ولن يُدخل أحد فيها قالوا: فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعها به (1) .

---

(1) انظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص 149.

والرؤساء الروحانيون في المسيحية يزعمون أن لهم سلطة المنح والمنع والغفران والحرمان، والإدخال في رحمة الله، والطرد منها، لأن المسيح قال لبعض تلاميذه على حد زعمهم: سأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماوات (1) .

حرّر القرآن الكريم العبادة من القيود المكانية المتزمتة، ولم يشترط المكان الخاص في عباداته إلا في الحج، لما فيه من فوائد تفوق فائدة التحرر من المكان، من التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع للناس (2) .

ومع اشتراط المكان لعبادة الحج، فليس فيه أي شائبة لتأثير الكهنوت وليس فيه أي ثغرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلم وبين الله، وشأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام.

إن العبادات في القرآن الكريم لا تتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة، إن المسلم يُصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما تكونوا فثم وجه الله، ويصوم ويُفطر في داره أو في موطن عمله. ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة، ولا حق عنده لأحد في قربانه، غير حق المساكين والمعوزين، ويذهب إلى صلاة الجماعة، فلا تتقيد

---

(1) انظر: العهد الجديد: إنجيل متى، اصحاح 19/16، ص 30.

(2) انظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص 151.

صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو إثارة حراب، ويؤمه في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة من بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفاً عندهم قبل ذلك (1).

إن عقيدة المسلم في الله لا تتيح مكاناً لأولئك الوسطاء الذين يتحكمون في ضمائر عباد الله، فاعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين:

أولاهما: أنه تعالى فوق عباده، علو قهر، ومكانة، وذات سلطان وتصرفه لا يشبهه شيء، ولا يحكم عليه شيء، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: 18]، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:11]، ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: 1-4].

أما المسلم فقد عرف من كتاب الله العزيز أن الأرض كلها محراب كبير، فحيثما توجه يستطيع أن يتجه بعبادته لله. وفي هذا يقول تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة: 115].

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: " وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل" (2).

(1) انظر: عباس العقاد: حقائق الإسلام، ص 112.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهوراً رقم (438) ص 129/1.

وقد كانت هذه الخصيصة للعبادة الإسلامية موضع الإعجاب العظيم والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين، حتى من رجال الأديان أنفسهم حتى إن الأسقف (لوفروا) قال: لا يستطيع أحد يكون خالط المسلمين لأول مرة، ألا يدهش بمظهر عقيدتهم، فإنك حيثما كنت سواء أوجدت في شارع مطروق أم في محطة سكة حديدية أم في حقل، كان أكثر ما تألف عيناك مشاهدته أن ترى رجلاً ليس عليه أدنى مسحة للرياء، ولا أقل شائبة من حب الظهور، يذر عمله الذي يشغله كائناً ما كان، وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين (1).

ولقد كان هذا المشهد العجيب في الأديان أحد العوامل التي أثرت في وجدان المحامي الكبير الأستاذ زكي عريبي عميد الطائفة اليهودية في مصر والذي اهتدى إلى الإسلام في عام 1960م، ومما جاء في محاضراته (لماذا أسلمت) قوله: (وما سمعت المؤذن يؤذن في الفجر أو في الظهر أو في أي وقت آخر إلا شعرت بأنه صوت الله، الذي يفصل بين الحق والباطل والحلال والحرام ويهدي الإنسان إلى الطريق المستقيم، وأركب السيارة في السفر وعلى الطريق بين الحقول وبين الفضاء تقع عيني على رجل متواضع يقف بين يدي الله في ثياب رثة مهلهلة، يقف على مصلي صغير ، مفروش بالرقيق من الحصير على شاطئ

---

(1) انظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام ص 150.

ترعة متواضعة يُصلي لله في خشوع وابتهال، فكانت نفسي تهفو إلى أن أُصلي مثل صلاته، كنت أعتقد أن هذه نفحات الله في الأرض يلقيها في نفوس عبادة الصالحين) (1) .

والحقيقة الثانية:

أنه تعالى مع عظمته وعلو شأنه، قريب من خلقه، بل هو معهم أينما كانوا، في جلوتهم وفي خلوتهم، يسمع ويرى، ويرعى ويهدي، ويُعطي من سأله، ويُجيب من دعاه، فهو تعالى قريب في علوه، علي في دنوه، وقد جمع تعالى بين العظمة والعلو، وبين القرب والدنو، في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الحديد: 4].

وقد عبّر القرآن على لسان إبراهيم أبو الأنبياء، عن العلاقة بين الإنسان والله فقال: ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ [الشعراء: 78-82]، وقال الله سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق:16]، وقال تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لَا**

(1) انظر: القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص 151.

تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 85] ، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: 186].

ومن اللطائف في هذه الآية: أن سُؤال الرسول صلى الله عليه وسلم، عن بعض الأمور قد وقع في القرآن بضع عشرة مرة، وكان كل جواب عن تلك الأسئلة مقترناً بكلمة (قل) مثل: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ**﴾ [البقرة: 189].

﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة: 219]، وكان مقتضى تلك الآيات أن يُقال في هذه: وإذا سألك عبادي عني فقل: إني قريب، ولكن أسلوب الآية خالف المعتاد ولم يأمر الله رسوله أن يقول للناس ذلك، وقال سبحانه مباشرة ﴿**فإني قريب**﴾ ، ولهذا الأسلوب البياني دلالته وإيحاؤه في الأنفس والعقول، إذ لم يجعل الله واسطة بينه وبين عباده، وهذا من وسطية القرآن الكريم في جانب العبادة حيث حرّر العبادة من ربقة الكهنوت، إن القرآن الكريم رد على من زعم أن له منزلة خاصة من الله: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ [المائدة: 18].

وحكى عن المسيح أنه يقوم لربه يوم القيامة في شأن من ادعوا الانتساب إلى دينه: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [المائدة: 118]، وبيّن

القرآن الكريم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعاً إلا ما شاء الله، قال تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: 188].

هذه وسطية القرآن في العبادة حرصت على تحرير الإنسان من ربقة الكهنوت، ومن الوسطاء بين العبد وخالقه.

فالمسلم تعلم من القرآن الكريم أن يكلم ربه بلا ترجمان، وأن يُناجيه بما شاء حيث شاء ومتى شاء، وأن يقف بين يديه بلا حجاب ولا واسطة إلا العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾ [النساء: 123-124].

أو الدعاء بالأسماء الحسنى:

قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: 180].

أو الدعاء في ظهر الغيب من أهل الصلاح لإخوانهم:

قال تعالى: ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحشر: 10].

ثالثاً . التوازن بين الروحية والمادية:

التوازن والاعتدال بين الروحية والمادية، أو بين الدين والدنيا، هو توجيه قرآني، دعا إليه المولى عز وجل، في كتابه العزيز ليصلح ما أفسده محرفو الأديان في مجال العبادة.

غلو اليهودية في أمر الدنيا:

لا تكاد تجد في أسفار التوراة الخمسة الحالية للروحانية أثرًا، ولا للآخرة مكاناً، حتى الوعد والوعيد في هذه الأفكار للمطيعين و العصاة، إنما يتعلقان بأمور دنيوية، وسيطرت عليها النزعة المادية الخالصة، فالخصب والصحة والثراء وطول العمر، والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب الدنيوية الزائلة، هي المثوبات التي تُبشر بها التوراة، وأضداد هذه الأمور من الجدب والمرض والموت والوباء والفقر والهزيمة ونحوها للذين يُعرضون عن الشريعة، فليس للأجزية الروحية ولا الأخروية مكان في التوراة (1) .

إهمال المسيحية لأمر الدنيا:

أما في الإنجيل فالدعوة فيه قوية إلى إلغاء قيمة هذه الدنيا، واعتبار هذه الأرض بمثابة منفى الإنسان، وطلب النجاة والسعادة هناك، في العالم الآخر، حيث تقوم مملكة السماء، فمن أراد ملكوت السماء فليعرض عن هذه الأرض، ومن أراد العالم الآخر، فليرفض هذا العالم أو هذه الدنيا، وهكذا لا تحس في الإنجيل أن لك في الدنيا نصيب، وأن

(1) انظر: المصدر السابق: ص 175.

لك في طيبات الحياة حظًا، ولا تشعر أن لبدنك عليك حقاً، وإن لك في إعمار الأرض دوراً، ولم تقف الدعوة إلى التقشف والتزهد وإهمال الحياة الأرضية، عند الحد الذي جاء به الإنجيل؛ بل ابتدع النصارى نظام الرهبانية، بما فيه من قسوة على النفس، وتحريم للزواج، وكبت للغرائز، ومصادرة للنزوع إلى الزينة والطيبات من الرزق، وانتشر هذا النظام العاتي، وكثر أتباعه، وأصبح ما يتعبدون به الله ويتقربون به إليه: البعد عن النظافة والتجمل، واعتبار العناية بالجسم ونظافته ونوازعه رجساً من عمل الشيطان (1).

وقد ذكر أبو الحسن الندوي (2) في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) صوراً للجماعة الرهبانية وغلوها، ما تقشعر منها الجلود، وتفزع القلوب، وتدهش العقول، وهذه الصور كما يقول الأستاذ الندوي قليل من كثير جدًا: " وكان بعض الرهبان لا يكتسبون دائماً، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام: وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة، وأوغلهم في النجاسات والدنس أكثرهم إيماناً، وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا

(1) انظر: المصدر السابق: ص 176.

(2) هو العلامة الأستاذ الأديب أبو الحسن الندوي الحسني من علماء الهند ورئيس رابطة علمائها وأدبائها له جهود مشكورة في مجال الدعوة والتأليف وخصوصا في الهند وهو من المعاصرين.

يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن، ولو كن أمهات أو أزواجاً أو شقيقات، تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية ". وذكر من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً(1).

ثالثاً. التوازن سمة القرآن والسُنة النبوية:

وهكذا كانت اليهودية في إغفالها للآخرة وللروح، وهكذا كانت المسيحية في تحقيرها للدنيا والجسد.

فلما جاء الإسلام كانت سمة التوازن والاعتدال في كل الآفاق والنواحي، الاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة، جاءت لتسع أقطار الأرض، وأطوار الزمان، وتشرع لشتى الأجناس والطبقات والأفراد في مختلف شؤون الحياة، الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد، بين بواعث الدين، ومطالب الدنيا، الاعتدال بين العمل لهذه الحياة والعمل لما بعد الحياة.

وبيّن القرآن الكريم أن على المسلم ألا يشغله حق الجسد عن حق الروح وألا تشغله رغائب الدنيا العاجلة عن حقائق الآخرة الباقية، عليه ألا ينسى الله فينسى حقيقة نفسه، وماهية وجوده، وفي هذا يقول القرآن: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [الحشر: 18-19].

(1) انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 158-160.

إن مهمة العبادة في الإسلام: الأخذ بيد الإنسان حتى لا تغرقه أعمال الدنيا في لجة النسيان، حيث ينسى الله، فيُنسيه الله نفسه، ومهمة العبادة أن تقوم بالتنبيه والتذكير لمن نسي مولاه، أو غفل عن أُخراه، ثم تدع الإنسان يعود بعد أدائها إلى دنياه يلقاها ساعياً حثيث الخُطى، وثيق العُرا .

إن القرآن الكريم وضع المسلم في وضعه الرشيد بين الدين والدنيا :

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الجمعة: 9-10] .

هذا هو شأن المسلم: عمل وبيع قبل الصلاة: ثم صلاة وسعى إلى ذكر الله، ثم بعد انقضاء الصلاة انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله، وفضل الله هنا هو الرزق والكسب .

ورواد المساجد في الإسلام ليسوا شيئاً متعطلاً، ولا رهباناً متبطلين، وإنما هم كما وصفهم القرآن: ﴿**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ**﴾ [النور: 37] .

فهم أناس لهم دنياهم وأعمالهم من تجارة وبيع، وما أشد ما تشغل التجارة والبيع، ولكن ذلك لم يُلههم عن حق الله .

وفي سياق الحج يرسم القرآن الكريم لنا صورة واضحة لصنفين من الناس الذين يدعون الله ويسألونه في تلك المنازل ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: 200-202].

هكذا قسّم القرآن الناس في الموقف الذي تسمو فيه الأرواح وتدنوا القلوب من ربها، وتهب عليهم نسمات الذكريات المحمدية من قريب، والذكريات الإبراهيمية من بعيد .

قسمان فقط ذكرهما القرآن: طلاب دنيا وما لهم في الآخرة من خلاق ، وهم ذلك الصنف الذي توعده الله في آية أخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18] ، وطلاب دنيا وآخرة يطلبون الحسنة في الحياتين ، والسعادة في الدارين ، دعاؤهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ والحسنة في الدنيا ذهب العلماء إلى أقوال متعددة فيها: العافية، والمرأة الصالحة، الأولاد الأبرار، أو العلم النافع ،أو الرزق الواسع، أو المحبة بين الناس، أو نحو ذلك، فكل هذا مما يحقق حسنة الدنيا .(1) .

(1) انظر: القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص 82.

ولم يذكر القرآن الكريم القسم الثالث من الناس ـ بحسب التقسيم العقلي ــ وهو من لا يطلب إلا حسنة الآخرة، وما له في الدنيا من أرب، وكأنه يعلمنا أن هذا الصنف لا يكاد يُوجد في الناس، فالحياة بمتاعبها الجمة وحقوقها المتنوعة، تفرض على طالب الآخرة أن يدعو ربه ليُيسر له سبيل دنياه ويُعينه على أداء حقوقها، ويُخفف عنه متاعبها ثم هو يُشعرنا أن إهمال الدنيا، وإهدار شأنها في حساب طالب الآخرة إنما هو أمر مذموم خارج عن سنة الفطرة، وصراط الدين معاً .

ولهذا لم يقبل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكرة الانقطاع عن الدنيا من أجل الرغبة في الآخرة، والاعتزال المطلق لعبادة الله، وكلما رمق في بعض أصحابه نزعة إلى هذا اللون من السلوك الذي عرف في بعض الأديان الأخرى، قُوم عوج أفكارهم، وهداهم للتي هي أقوم (1) .

إن وسطية القرآن الكريم في العبادة، جعلت العبادة لا تنعزل عن الدنيا، والدنيا لا تحيف على العبادة؛ بل جمعت بين الأمور بدون إفراط أو تفريط أو غلو أو جفاء .

رابعًا . الرخص والتخفيفات في العبادة دليل على وسطية القرآن:

قد علمنا أن من ملامح الوسطية رفع الحرج في الشريعة، واليسر في الأحكام، وعدم التكليف بما لا يطاق ويظهر رفع الحرج في باب العبادة واضحاً في الرخص

(1) انظر: المصدر السابق: ص 112.

والتخفيفات التي تدل على اليسر ورفع الحرج في عباداته وتكاليفه في عامة الأحوال، فإن القرآن الكريم، والسُنة النبوية شرعت ألواناً من الاستثناءات والإعفاءات والتسهيلات في أحوال خاصة، وهي تلك التي تُوجد للإنسان نوعاً من المشقة يئوده ويثقل ظهره، ويقعد به عن مواصلة السير، فالسفر مثلا تقتضيه مطالب الحياة التي جاء الدين بإقرارها، بل بتمجيدها والدعوة إليها .

كالسفر في طلب الرزق ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ [الملك: 15].

والسفر للحج إلى بيت الله ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ [الحج: 27].

والسفر لطلب العلم، وغير ذلك من الأغراض الدينية والدنيوية والمرض مثلاً من ضرورات الحياة وبلائها الذي لا يكاد يسلم منه إنسان بمقتضى النشأة الإنسانية، والتركيب البشري ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ [البلد: 4].

والجهاد من مطالب الحياة وضروراتها معا، إذ الإسلام لم يشرعه إلا دفاعاً عن النفس، وتأميناً للدعوة، ودرءاً للفتنة، وإنقاذاً للمستضعفين وتأديباً للناكثين.

وفي هذه الأمور الثلاثة (السفر والمرض والجهاد) قرر الإسلام تيسرت شتى:

من رخص الصلاة:

فجعل للمسافر في الصلاة القصر: يُصلي الرباعية كالظهر والعصر والعشاء ركعتين فقط، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك: " صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته " (1).

ورخص له في الجمع بين الصلاتين الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء فأجاز جمعها في وقت إحداهما تقديماً أو تأخيراً، كما رخّص للمريض أن يُصلي قاعداً أو مضطجعاً على جنبه، أو مستلقياً على ظهره، حسب استطاعته، وليس على المريض حرج، وفي (الطهارة) التي هي شرط لصحة الصلاة رخّص لمن يتعذر عليه استعمال الماء من مريض أو مسافر أو نحوهما أن يترك الوضوء إلى التيمم بالصعيد الطيب من رمل أو تراب أو حجر أو نحوه، تيسيراً من الله ورحمة بعبادة.

قال تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة: 6].

وقد ذكر القرآن هذا الحكم أيضاً في سورة النساء قائلاً: ﴿ **فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا** ﴾ [النساء: 43].

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، رقم (686) ص 318/2.

وفي هذه الآيات يتبين للمسلم أن هذه الرخص في العبادات مظهر يتجلى الله فيه بأسمائه: (العفو الغفور، الكريم الرحيم، الذي يريد أن يُطهر عباده ويتم عليهم النعمة) . [1] .

وهذا دليل على وسطية القرآن في العبادات.

من رخص الجهاد:

وفي الجهاد شرع الله صلاة الحرب أو الخوف، وجعلها في الرباعية ركعة واحدة تيسيراً، وإعانة لهم على عدوهم وعند التحام الصفوف قبل الله منهم الصلاة كيفما استطاعوا ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا** ﴾ [البقرة: 239].

فلا يشترط فيها ركوع ولا سجود ولا استقبال قبلة.

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يُفرقون بين الصلاة والجهاد، فتلك عمود الإسلام، وهذا ذروة سنامه.

وقد فرض الله على المجاهدين أن يحملوا أسلحتهم ويأخذوا حذرهم وهم بين يديه خاشعون، ولربهم مبتهلون مناجون: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً** ﴾ [النساء: 102].

([1]) انظر: القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص 134.

رخص الصيام:

وفي صيام رمضان رخص المولى عز وجل للمسافر في الإفطار، بل أوجبه عليه إذا كان في صومه مشقة ظاهرة عليه، ففي الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظل عليه، فقال: ما هذا، فقالوا: صائم، فقال: ليس من البر الصوم في السفر " (1) .

وبذلك أثبت النبي صلى الله عليه وسلم بكل صراحة: أن الصيام إذا أتعب صاحبه وأجهده لا يجوز له صيام.

وكذلك رخّص للمريض بالفطر في رمضان، ويقضي هو والمسافر عدة أيام آخر، قال تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: 185].

ورخّص رسول الله صلى الله عليه وسلم للمجاهدين بالفطر في الصيام عن ابن عباس رضي الله عنهما: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرج إلى مكة في رمضان فصام، حتى بلغ الكديد (2) أفطر، فأفطر الناس " (1) .

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب ليس من البر الصوم في السفر، رقم (1946) ص 292/2.

(2) الكديد: منطقة ما بين عسفان وقديد في طريق مكة.

ومبدأ التخفيف والتيسير في العبادة من أجل المرض والسفر والجهاد مبدأ نزل به القرآن منذ مطلع فجر الإسلام في مكة ففي سورة المزمل قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: 20].

وبهذا يتضح للقارئ الكريم عظمة المنهج الرباني ووسطيته في كافة المجالات التشريعية من عقائد، وأخلاق، وعبادة، وحرصه على رفع الحرج وتيسير الأمور وتسهيلها على الناس. (2)

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصوم، باب إذا صام أياماً من رمضان ثم سافر، رقم (1944) ص 292/2.

2 انظر: الصلابي: الوسطية في القرآن، ص 399.

المبحث الأول

الصلاة

قال تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الروم: 31)

يقول أبو الحسن الندوي عليه رحمة الله:

لا يفهم الصلاة ولا يفهم الحاجة إليها ولا يتذوقها إلا من عرف تلك الصلة الغريبة الفريدة التي تقوم بين العبد وبين الرب إنها صلة غريبة فريدة لا نظير لها ولا مثال، إنها لا تقاس على صلة بين طرفين وبين اثنين في هذا الوجود، إنها لا تقاس على صلة بين صانع ومصنوع وبين حاكم ومحكوم وبين قوي وضعيف وبين فقير وغني وبين مستجدٍ مُكدٍ وبيّن جوادٍ مُنعمٍ فحسب " إنها صلة أدق من جميع هذه الصلات وأعمق وأقوى وأشمل، ولا يفهم هذه الصلة الغريبة الفريدة بين العبد والرب إلا من عرف صفة العبد والرب، والصلة دائماً نابعة للصفة تابعة لها، إنك لا تستطيع أن تحدد صلة بين طرفين وبين اثنين إلا إذا عرفت صفة كل واحد منهما وعرفت التفاوت أو التفاضل بينهما وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلى الآخر وفضل أحدهما على الآخر وجميع الصلات التي تمارس في الحياة والتي تشكل القانون وتُكون المدينة وتصوغ المجتمع خاضعة للصفات التي نعرفها أو نتوهمها للأفراد والكائنات أو أعضاء الأسرة أو ذوي السلطان [1].

([2]) انظر: أبو الحسن الندوي: الأركان الأربعة، ص 13-14.

الصلاة عند اليهود:

من خلال البحث الدقيق في التوراة لا نجد أمراً صريحاً بالصلاة، لأن العبادة كانت محصورة في الذبح والقرابين ، ومع ذلك فإن اليهود يعتبرون الدعاء والصلاة وسيلة للتقرب إلى الله، وقد كان أنبياء بني إسرائيل يلجئون إلى التوبة والاستغفار والتذلل إلى الله.

والصلاة عندهم بهذا المفهوم ثلاث مرات في اليوم عند الفجر وفي الظهيرة وعند غروب الشمس، وأنواع الصلاة عندهم صلاة السبت، وصلاة الهلال الجديد ن وصلاة الأيام المقدسة، وصلاة يوم الكفارة. والذكور عندهم ينفصلون عن الإناث أثناء الصلاة وهي تبدأ من سن الثالثة عشرة، ولا يفرقون بين الأئمة وعامة المصلين في صلاتهم لأنهم حسب زعمهم متساوون أمام الله. وحديثاً ضُمت الموسيقى والغناء إلى الصلاة اليهودية مما أثر على روح الصلاة وجردها من الخشوع ومن الإقبال على الله بالقلب.

الصلاة عند المسيحيين:

كان السيد المسيح عليه السلام يمارس الصلاة كما يمارسها اليهود، ويشاركهم صلاتهم وقد استمر المسيحيون على ذلك حتى فصلت اليهود الكنيسة المسيحية عنها، وأول تأليف للصلاة المسيحية كان في القرن الرابع وهي تعتمد على الاعتراف بالخطايا والدعاء وترديد المصلين خلف القس بقولهم " **آمين** ".

وتتميز الصلاة الأسبوعية في يوم الأحد بخطبة يتقدم بها القس في موضوع يقتضيه الحال ويعقب الصلاة العشاء الرباني ويختم بدعاء وجيز وتنتهي الصلاة وينتشر الناس.

الصلاة عند المسلمين:

فرض الله الصلاة على المسلم ذكراً وأنثى في اليوم خمس مرات، تختلف كل صلاة عن أختها بعدد ركعاتها، ثم سن النبي عليه السلام سُنن تُصلى قبل أو بعد المفروضة.

يقول أبو الحسن الندوي:

" على المسلم أن يألف هذه الصلاة ويرى فيها الأنيس المؤنس والمغيث المنجد ويتعود كلما التوى عليه شيء أو أعياه أمر أو كربه هم أن يبادر إلى باب الكريم فيطرقه ويلح به حتى يؤذن بالفتح، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان في كل جيل قد تعودوا ذلك وكان شأنهم مع الصلاة شأن الجندي مع سيفه وشأن الغني مع ثروته بل كانوا أكثر تذللاً و ثقة بصلاتهم وأقوى اعتماداً عليها من كل ذلك وأصبح ذلك طبيعة لهم لا تفارقهم فإذا أُفزعوا أو أُثيروا وإذا دهمهم عدو أو تأخر عليهم فتح أو التبس عليهم أمر التجأوا إلى الصلاة وفزعوا إليها" [1].

والصلاة عند المسلمين تعتمد على قيام وركوع وسجود وجلوس، وفي كل ركن من هذه الأركان يقول المصلي كلمات محدودة مخصوصة لا يخالفها أبداً وإن خالفها بطُلت صلاته. فلا يستطيع أن يستعيض عن الفاتحة بالإخلاص أو عن التشهد بالدعاء فهي عبادة ذات أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

(1) المصدر السابق: ص 89-90.

والصلاة عند المسلمين موروث نبوي خالص: " **صلوا كما رأيتموني أصلي** "[1]، لم يثبت علمياً أن أحداً من المسلمين صحابياً أو عالماً تدخل فأضاف إليها شيئاً أو أنقص منها شيئاً وإلا تصبح باطلة، وهذا خلاف الصلاة عند اليهود أو النصارى التي هي موروث بعيد عن نبع النبوة عندهم بل هو وضع كهنوتي تم بناؤه على مدار القرون والأزمان وهي تختلف من فئة عن فئة.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الآذان، باب: الأذان للمسافر، رقم (631) ص 1/ 203.

المبحث الثاني

الزكاة

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (التوبة: 11) .

نستعين بأبي الحسن الندوي يحدثنا عن الزكاة عند اليهود والمسيحيين.

" إن الذي اعتاد المنهج العلمي التشريعي الذي يشتمل على حدود وقوانين وأحكام فقهية، وتفاصيل قانونية في الشريعة الإسلامية بما فيها من كتاب وسنة وكتب فقهية، يُفاجأ بحيرة وشعور الإخفاق إذا بحث عن مثل هذا القانون المعيّن المحدد، واضح المعالم معلوم الحدود كفريضة الزكاة أو الصدقات في كتب العهد القديم أو العهد الجديد أو في التلمود ويكتشف أنها مقتصرة على مواد مبعثرة وأحكام أشبه بالتوجيهات الخُلقية أو الروحية أو بوصايا عامة منها بأحكام فقهية أو تفاصيل قانونية، فلا يطّلع بعد البحث الدقيق على مباحث أساسية تُعطي لهذه الفريضة صورة فقهية قانونية.

فمثلاً إذا حاول أن يعرف على من تجب الزكاة وفيما تجب وما هو نصابها وما هو القدر الواجب وما هي مصارفها بالضبط أو من يستحقها ومن تدفع إليه، أسئلة تكلفت كتب السُنة والفقه الإسلامي بالإجابة عليها وتكونت من تفاصيلها هذه الكتب الفقهية الهائلة، لم يجد جواباً شافياً ولا يرجع الباحث في المقال الخاص بالزكاة أو الصدقات في دائرة المعارف اليهودية وفي دائرة معارف الديانات والأخلاق بطائل كبير في هذا الموضوع رغم دراسة الكاتبين المختصين له دراسة واسعة وتتبعهما للمراجع اليهودية تتبعاً دقيقاً.

وقد ذكر بعض الباحثين أن أموال الزكاة عند اليهود كانت تُدفع إلى صندوق بيت المقدس وكان عشرها مخصصاً بآل هارون " **اللاويين** " الذين كانوا كهاناً بالنسل والتوارث وكان الواحد من ستين يُصرف إلى أصحاب المناصب الدينية، وكان جزء منه مخصصاً بإطعام حجاج بيت المقدس وضيافتهم. [2]

أما عند المسلمين فالزكاة بمعنى الطهر فهي تطهير للنفس تزكية لها قال تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** ﴾(التوبة: 103). وقد جاء ذكرها في الآيات التي نزلت في مكة قبل الهجرة كما حالها في القرآن المدني ولقد وضع لها الإسلام شروطاً وحدد لها أنواعاً وبين أنواع مصارفها ولم يترك الأمر لهوى نفس أو اجتهاد عالم. فهي فريضة ليس لها علاقة بهوى الشخص إن شاء أعطى وإن شاء منع بل هي إجبارية لأنها حق الفقير من مال الله الذي أعطاه الغني، لهذا نجد أن النبي عليه السلام كان يجمع الزكاة ويأمر أمراءه كذلك بجمعها من الأغنياء ليردها على الفقراء وهكذا كان موقف الخلفاء من بعده.

وأنواع الأموال التي تجب فيها الزكاة في الإسلام هي:

1- الذهب والفضة.

2- البضائع التجارية (عروض التجارة).

3- المحصولات الزراعية وثمار الأشجار والكروم.

---

[2] انظر: الندوي: الأركان الأربعة، ص 128- 129.

4- الأنعام (الإبل – البقر – الغنم) .

5- المعادن والكنوز (الركائز) .

أما شروط الزكاة فهي:

1- أن يكون المال مملوكاً ملكاً تاماً .

2- أن يبلغ هذا المال النصاب أي المقدار الذي حدده الشرع.

3- أن تمضي سنة قمرية على النصاب.

4- أن يكون المال زائداً عن حاجات مالكه الضرورية.

أما مصارف الزكاة فهي:

الأصناف التي شملتهم أية التوبة ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ . (التوبة: 60).

من هذا التفصيل للزكاة في الإسلام يتبين للدارس أن الإسلام قدّم إلينا نظاماً اقتصادياً دقيقاً لا مثيل له في أي دين سابق، حتى النظم القانونية الأرضية تعجز أن تصل بقوانينها إلى دقة ما بلغ الإسلام.

يقول أبو الحسن الندوي:

ومن السمات المميزة للزكاة هي: روح الإخلاص والتواضع والامتنان " **لا المن** " والإكرام الذي يجب أن يقترن به أداء الزكاة ويتصف بها صاحبها وهي الآداب الدقيقة والأخلاق

السامية النبيلة والروح الدينية التي حث عليها القرآن وأشاد بها ووصف كرم القائمين بهذه الفريضة بالتلبس بها، فتارة نهى المتصدقين وأصحاب الخير والبر من أن يكدر أعمالهم ويقلل من قيمتها المن والأذى فقال في الأسلوب القرآني المعجز: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة : 262 ـ 264)، وتارة مدح أصحاب الخير والبر بروح التواضع والإشفاق الذي يسيطر عليهم عند اشتغالهم بهذه الخيرات وتلبسهم بها فقال: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ (المؤمنون: 60) ، وقال: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ (المائدة: 55) وتارة مدح القائمين بهذه المبرّات وأعمال المواساة بالإخلاص التام والتجرد عن الأغراض المادية أو المعنوية فقال: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً** ﴾ (الإنسان: 8 ـ 10)، وكذلك حث

على أن يكون حظ الله وحظ عباده الفقراء من المال الطيب الكريم الذي ترغب فيه النفس ويكرم فيه الرجل لا من المرذول الرديء الذي يزهد فيه ويستهان بقيمته [5].

(5) المصدر السابق: ص 122 -123.

المبحث الثالث

الصوم

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . (البقرة:183)

الدارس لعلم مقارنة الأديان سيجد دون عناء كبير أن الصيام شعيرة من شعائر الأمم السابقة دون استثناء من مصريين قدماء إلى مجوس إلى هنود إلى يهود إلى مسيحيين وغيرهم، وغيرهم.

فالمصريون القدماء عرفوا الصوم وقد كانوا يصومون أيام الأعياد كوفاء النيل والحصاد وغيرها، أما رجال الدين فكانوا يصومون ستة أسابيع في العام وكان صومهم من طلوع الشمس إلى غروبها حيث يمتنعون عن تناول الطعام ومباشرة النساء.

كذلك عرف الرومان واليونان الصوم وكانت أهم أيام صومهم أنهم يصومون قبل الحرب رجاء النصر، وكان رجال الدين في جزيرة "**كريت**" يصومون مدى الحياة عن أكل اللحوم والأسماك والطيور.

كذلك المجوس عرفت الصوم وبالغت بعض فرقهم فيه حتى سميت " الصيامين " لأن أتباعهم تجردوا للعبادة فأمسكوا عن الطيبات من الرزق كأكل الأسماك والطيور وعن الذبائح والنكاح.

وعرف الهنود الصوم قبل الميلاد بعدة قرون فقد كان الانطلاق والاندماج في الصوم أغلى ما يتطلع إليه العقل البشري الهندي وكانت الزهادة المفرطة للصوم وأرق الليل وتعذيب النفس وسيلتهم لهذا الانطلاق وكان يحتم على الهندوسي ألا يقتل حياً ولا حتى الهوام وعليه إذا مشى أن ينتبه حتى لا يطأ حشرة فيقتلها وإذا شرب أن يتأكد أنه ليس بالماء الذي يشربه شيئاً حي، ولا يأكل ما فيه روح وقد جاء في كتاب الهندوس المقدس " وليكن طعامك مما تنبته الأرض وتثمره الأشجار ولا تقطف الثمر بنفسك بل كل منه ما يسقط من الشجرة بنفسه وعليك بالصوم: الصوم يوماً والفطر يوماً وإياك واللحم والخمر " .

الصوم عند اليهود: الصوم عند اليهود كما أجمعت الكتب التي تتحدث عن ذلك، يعتبر رمزاً للحداد والحزن لا يفعلونه إلا إذا دهمهم خطر أو إذا حلت بديارهم نكبة عظيمة أو وباء أو جذب، وكان لليهود أيام محددة دائمة يصومون فيها ، مثل يوم الكفارة وفي ذكرى أيام الأسر البابلي وتكون في شهر تموز وآب، وهناك أيام صيام خاصة بكل قبيلة أو إقليم على حده.

والصوم عند اليهود ابتداءً عند الشروق وينتهي عند ظهور أول نجوم الليل إلا يوم الكفارة فإنه يستمر من المساء إلى المساء التالي.

يقول الدكتور أحمد شلبي:

" فرضت التوراة على اليهود الصوم وكان موسى يصوم أربعين يوماً في العام، ولا يزال اليهود وخصوصاً المتدينون منهم يصومونه حتى الآن وإن اختلفوا في وقت الصوم وعدد أيامه، ومن أنواع الصوم عندهم الصوم عن الكلام كما فعلت مريم، والصوم عن العمل يوم السبت، أما

الصوم عن الطعام فيوجد عند اليهود ولكن في شكل فردي وأحياناً في شكل جماعي، ومن طقوسهم عند صومهم عدم مباشرة النساء واعتزال الأكل والشرب إلا ما كان نباتياً أو حين الضرورة القصوى. [1]

يقول صاحب كتاب عالم الأديان:

الصيام عند اليهود يوم واحد في السنة هو صيام التكفير، (يوم الغفران) فهم يحتفلون بيوم التكفير الذي يصادف اليوم العاشر من الشهر السابع العبري وهو أهم يوم في السنة العبرية حسب قول التوراة والغرض من طقوس يوم التكفير تطهير الشعب والهيكل تطهيراً شاملاً، وفي هذا اليوم يُكفر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم أمام الرب تطهرون هذه فريضة دهرية للتكفير عن بني إسرائيل من جميع خطاياهم مرة في السنة، إنه يوم الغفران. [2]

الصوم عند المسيحيين: معلوم أن المسيح صام أربعين يوماً قبل أن يبدأ رسالته ، وكان يصوم يوم الكفارة وغيره من أيام اليهود المفروضة في الشريعة الموسوية كأي يهودي مخلص ، إلا أنه لم يخلف من بعده تشريعاً ولا مبادئ خاصة به بل ترك الأمر لأتباعه من بعده ، لهذا نجد أن الصوم عند المسيحيين تطور مع الزمن ومع العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية أحياناً كثيرة، ولهذا لا يزعم أحد أن المسيح ترك أو أصدر قوانين عن الصوم تختلف عن صوم اليهود في زمانه.

(1) انظر: أحمد شلبي: مقارنة الأديان، (الإسلام) ص 112.

(2) انظر: فوزي حميد: عالم الأديان، ص 350.

وبعد انتهاء القرن الأول ومنتصف القرن الثاني بدأ الرهبان يضعون نُظماً للصوم وأنواعه.

ومن أنواع صومهم ما يستغرق اليوم وما يستغرق اليومين أو بضعة أيام، وكان صوم يوم جمعة الآلام صوماً شعبياً عاماً، وكان من الصوم الشائع عندهم صوم يوم الأربعاء ويوم الجمة من كل أسبوع.

ومن الأمور الغريبة أننا نجد الصوم وعدد أيامه يختلف من بلد إلى آخر ويختلف عن الأشياء التي يمسكوا عنها فالصوم في روما يختلف عنه في الإسكندرية والصوم في القرن الثالث يختلف عنه في القرن الرابع.

الصوم عند المسلمين: الصوم فريضة من الله مباشرة بنص الآية القرآنية الكريمة التي بدأنا بها الحديث، وقد حُددت أيامه مسبقاً، وهي شهر رمضان كاملاً، وهناك أيام أخرى ندب النبي عليه السلام صيامها على المسلمين منها: صيام أيام التشريق ويوم عرفة ويوم عاشوراء ويوم الاثنين والخميس من كل أسبوع وصوم أيام من شهر رجب وغيرها من الأيام.

وكما يقول الندوي:

وليس الصوم الإسلامي مجموعة من أمور سلبية فقط، فلا أكل ولا شرب ولا غيبة ولا نميمة ولا رفث ولا فسوق ولا جدال، بل هو مجموع أمور إيجابية كذلك، فهو زمن العبادة والتلاوة والذكر والتسبيح والبر والمواساة، وقد قال النبي عليه السلام: " من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة

فيما سواه وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة وشهر المواساة "[1]، وقال النبي عليه السلام: " ومن فطّر صائماً كان له مثل أجره ، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئًا ". [2] . [3]

الصوم عند المسلمين ليس إيلاماً للنفس في أصل تشريعه، وليس عقوبة من الله بل هو عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله، ليس فيه غلظة مجحفة وليس فيه من القيود القاسية العنيفة وليس فيه ما لا طاقة للنفس عليه، بل فيه تعجيل الفطر وتأخير السحور وإباحة النوم والراحة في الليل والنهار، وهو ربط الروح والجسد برباط من التقوى.

---

(1) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه: رقم (1887).

(2) أخرجه الترمذي في سُننه: كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل من فطّر صائماً رقم (804) ص 2 / 151.

(3) انظر: الندوي: الأركان الأربعة، ص 203.

المبحث الرابع

الحـــج

قال تعالى: ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ . (الحج: 27 ـ29) .

الباحث في تاريخ الديانات على عمومها سيجد أنه لا أُمة من الأمم، أو ديانة من الديانات؛ إلا وعندها أمكنة مقدسة تشد إليها الرحال، ولكل أمة من العادات والتقاليد والطرق والآداب لهذه الزيارة المقدسة لأن الإنسان لا يستطيع مهما كان مستواه العقلي والعلمي أن يهرب من نداء الضمير وإجابة دعوة الخالق، والبحث عن عمل طويل فيه المشقة يُكفر من خلاله ذنوبه وسقطاته، يلتقي فيه مع غيره لقاء الأخوة الدينية والعاطفة الروحية، لهذا لم تخل أمة من الأمم ولا دور من أدوار المدنية ولا الحضارية من أسفار دينية ومناسك مشهورة ومشاهد مقدسة يجتمع فيها الناس ويذبحون الذبائح ويُقربون القرابين لله تعالى أو لآلهتهم ومعبوداتهم: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (الحج: 34) ، والديانة اليهودية ومن بعدها المسيحية من أقرب الديانات لنا زمناً ومكان لقاء .

والبيت المقدس وما حوله من آثار ومشاهد ملتقى هاتين الديانتين ومركزهما الروحي، والحج أو الزيارة إليه قديم. إلا أننا نجد أن موضوع الحج أو الزيارة عند هاتين الديانتين يكتنفه كثير من الغموض والاضطراب وقلة المعلومات مقارنة بالحج عند المسلمين الذي يجد الباحث تفاصيله الدقيقة بدون جهد أو عناء.

الحج عند اليهود:

ويُدعى الزيارة ويؤدى في ثلاثة أعياد:

- **عيد الحصاد.**
- **عيد الفصح.**
- **عيد المظال.**

وهو فريضة على كل اليهود ما عدا الإناث والصغار، وكان واجباً على الزائر أن يقدم تقدمة للرب، وكانت الخراف تُقدم كذبائح بإعداد كبيرة. وبعد الفتح الإسلامي أصبحت الزيارة مرة في العام ولم يُمنع اليهود من الزيارة، وعند اليهود عادة زيارة مشاهد وأضرحة أخيارهم وأنبيائهم.

الحج عند المسيحيين:

ويُقصد به الرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة أو مراكز الدين المقدسة في روما أو التي تُنسب إلى القديسين والزهاد. والمسيحيون الأوائل لم يهتموا بهذا

المنسك كثيراً. بل نجد أن الاهتمام بدأ به من أخريات القرن الثالث وعنوا به عناية كبيرة أكثر مما عنوا بتتبع تعاليم هذا الدين ووصاياه.

وأهم الأماكن عندهم للحج هي المشاهد الموجودة في فلسطين ثم تليها روما لوجود ضريحي القديس بطرس والقديس بولس حسب زعمهم، والباحث يجد عجباً من كثرة الأضرحة والمشاهد الموجودة في فلسطين وفي كل قطر أو بلد حتى أننا نجد كثيراً من المبالغة والتقديس والاهتمام، وتجشم المتاعب والسفر، وكيف أن هذه المشاهد شغلتهم واستحوذت على مشاعرهم وأثارت فيهم الغلو في التقديس والتعظيم حتى أوصلتهم إلى الشرك وعبادة غير الله. هذا كله الذي نجده عند اليهود أو المسيحيين لا نجد له مثيلاً عند المسلمين على الإطلاق.

الحج عند المسلمين:

كانت العرب قبل الإسلام تحج البيت الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وتعرف لهذا المقام قدسيته ومكانته، لهذا نالت قريش من المكانة العظيمة لقربها من هذا البيت العظيم، واشتهرت مكة على مدار التاريخ شهرة عريضة لوجود البيت فيها، لهذا لما جاء الإسلام حافظ على هذه المكانة لمكة المكرمة، وعمل على تطهير المكان من مظاهر الشرك والوثنية وعدّل من أعمال الناس أثناء الحج بما يُناسب الدين الجديد والعقيدة الجديدة.

وكما يقول عفيف طبّارة:

الحج في الإسلام يختلف كل الاختلاف عن سائر الأديان، إذ أن الحج عندها عبارة عن التبرك بقبور القديسين وما تركوه من آثار ومبان، وهذا ما كرهه الإسلام ونفر منه وكان أفضل الحج عندها ما حمّل الإنسان نفسه في سبيله من المشاق. أما الإسلام فإنه كره أن يُرهق فيه أحدٌ نفسه ولو تطوعاً رغبة في زيادة الأجر فقد رُوي أن النبي رأى رجلاً ماشياً يتهادى بين ولدين له يريد الحج فسأله عن شأنه فقيل: يا رسول الله إنه نذر أن يزور البيت ماشياً فقال: كلا إن الله غني عن تعذيب هذا نفسه احملوه أي على بعير.

والإسلام يعتبر الحج وسيلة لتحقيق الكثير من الفوائد الروحية والأدبية والاجتماعية والسياسية والفائدة الاقتصادية لا تقل شأناً عن سابقاتها .[1]

والحج في الإسلام فريضة لمرة واحدة في العمر ولا يكون إلا من البالغ العاقل، صحيح البدن الذي يملك زاد السفر وأجرة الانتقال والنفقة عليه وعلى من يملك، وأن يكون الطريق مأموناً لا فرق بين ذكر وأنثى في ذلك.

وله من الأركان الثابتة مع الزمن دون تغيير فيها:

- **الإحرام.**
- **السعي بين الصفا والمروة.**

(1) انظر: عفيف طبّارة: روح الإسلام، ص 259 - 260.

- **الوقوف بعرفة.**
- **طواف الإفاضة.**
- **حلق الرأس أو تقصيره.**

وأن تكون هذه الأعمال مرتبة.

ولا يزال الحج على مر العصور نظاماً لا يُبارى في تشديد عُرى التفاهم الإسلامي، والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين وبفضله يتسنى لكل مسلم أن يكون رحّالة مرة واحدة على الأقل في حياته وأن يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعاً فورياً يوحد شعوره مع شعور سواه من القادمين من أطراف الأرض، وبفضل هذا النظام يتيسر للزنوج والبربر والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم، أغنياء كانوا أو فقراء، عظماء أم صعاليك أن يتآلفوا لغة وإيماناً وعقيدة، وقد أدرك الإسلام نجاحاً لم يتفق لدين آخر من أديان العالم في القضاء على فوارق الجنس أو اللون أو القومية خاصة بين أبنائه، فهو لا يعترف بفاصل بين أفراد البشر إلا الذي يقوم بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، ولا شك أن الاجتماع في مواسم الحج أدى خدمة كبرى في هذا السبيل. (1)

هذه عجالة طوفنا من خلالها حول العبادة عند الديانات الثلاث السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام، تعرفنا من خلالها على أسرارها عندها جميعاً ثم عرفنا شيئاً من

(1) المصدر السابق: ص265.

طقوس كل دين لهذه العبادات ولمسنا ما في اليهودية والمسيحية من طقوس يشوبها بعض الشرك والجهل والضلال والانحراف عما شرعت له.

بل أننا نجد أن بعض هذه العبادات لعبت يد الإنسان والتاريخ فيه بالكثير من التغيير والتبديل، وحينما وصلنا إلى الإسلام وجدنا كم من النظام والقانون والضوابط وُضعت لحماية هذه العبادات من عبث العابثين.

لهذا لا غضاضة حينما نقول أن العبادة في الإسلام هي أرقى صورة وأجمل رونقاً من مثيلاتها في الديانات الأخرى، ولهذا لا غرابة أن يتحقق ما ذكره الله من هيمنة هذا الدين على الدين كله.

الفصل الثالث

شرع من قبلنا

هذا الفصل هو صُلب الدراسة، سأتحدث فيه عن عدة قضايا لها علاقة بموضوع شرع ما قبلنا، وسيكون الحديث من خلال: تمهيد وخمسة مباحث:

تمهيد .

المبحث الأول: معنى شرع من قبلنا .

المبحث الثاني: شرع من قبلنا هل هو شرع لنا .

المبحث الثالث: في شرائع الأنبياء قبل محمد عليه السلام.

المبحث الرابع: هل كان النبي ﷺ متعبد قبل البعثة بشرع من قبله.

المبحث الخامس: النسخ وعلاقته بشرع من قبلنا .

تمهيـــد:

نتحدث في هذا التمهيد بشكل وجيز عن أدلة الأحكام في الشريعة الإسلامية، ثم بإذن الله نتحدث تفصيلاً عن أصل بحثنا وهو شرع من قبلنا . والأدلة من حيث اتفاق العلماء على أحجية كونها مصدراً من مصادر التشريع.

وهي تنقسم إلى قسمين:

قسم اتفق جمهور الفقهاء على أحجية العمل بها وهي القرآن الكريم والسُنة النبوية والإجماع والقياس.

وقسم اختلف الفقهاء على أحجية بعضها دون البعض وهي:

الاستحسان، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، والعُرف، وقول الصحابي، والاستصحاب، وشرع من قبلنا .

ونتحدث الآن عن كل دليل بشيء من الإيجاز:

أولاً. القرآن الكريم:

هو الكتاب المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا عن النبي نقلاً متواتراً بلا شبهة.

ولا خلاف على أنه المصدر الأول للتشريع، والأحكام الواردة في هذا الكتاب العزيز منها ما كانت أحكام متعلقة بالعقيدة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ومنها أحكام تتعلق بتهذيب النفس وتقويمها .

ومنها أحكام عملية تتعلق بأفعال العباد وأقوالهم، وهذا القسم أحكامه نوعان:

- نوع يتعلق بالعبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج.
- ونوع آخر يتعلق بالمعاملات، والمقصود منها تنظيم علاقة الفرد بالفرد أو الفرد بالجماعة أو الجماعة بالجماعة.

وأقسام هذا النوع كثيرة منها:

1. **أحكام تتعلق** بالأسرة وما يسمى الأحول الشخصية: وآياتها نحو (70) آية.
2. **أحكام تتعلق** بالمعاملات المالية: وآياتها نحو (70) آية.
3. **أحكام تتعلق** بالقضاء والشهادة واليمين: وآياتها نحو (13) آية.
4. **أحكام تتعلق** بالجرائم والعقوبات: وآياتها نحو (30) آية.
5. **أحكام تتعلق** بنظام الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم: وآياتها نحو (10) آيات.
6. **أحكام تتعلق** بعلاقات دولة الإسلام بغيرها: وآياتها نحو (25) آية.
7. **أحكام تتعلق** بموارد الدولة ومصارفها: وآياتها نحو (10) آيات.

والقرآن قطعي الورود أي ثابت قطعاً لوصوله إلينا بطريق التواتر المفيد للعلم اليقيني بصحة المنقول فأحكامه إذن قطعية الثبوت.

ثانياً . السُنة:

هي ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. فهي دليل من أدلة الأحكام ومصدر من مصادر التشريع.

والسُنة من حيث ماهيتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

1- **السُنة القولية:** وهي أقوال النبي التي قالها في مناسبات مختلفة وأغراض شتى، وهي ما يطلق عليه الحديث الشريف. وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم إنما تكون مصدراً للتشريع إذا كان المقصود بها بيان الأحكام أو تشريعها.

2- **السُنة الفعلية:** وهي ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم كأداء الصلاة والصيام والحج، وبيان هيئاتها وأركانها، ويخرج من هذه الأفعال أفعاله الجبّليّة التي تصدر عنه بحسب الطبيعة البشرية، أو ما ثبت كونه من خواص النبي عليه السلام.

3- **السُنة التقريرية:** وهي سكوت النبي عليه السلام على رضا أو إنكار قول أو فعل صدر في حضرته أو في غيبته وعلم به.

وقد فصل العلماء كثيراً من حيث ورود الحديث الشريف ومن حيث كونه متواتراً أو مشهوراً أو حديث آحاد، إلا أن الذي يهمنا هنا هو كون السُنة مصدراً من مصادر التشريع.

ثالثاً . الإجماع:

وهو اتفاق المجتهدين من الأمة في عصر من العصور على حكمٍ شرعي بعد وفاة النبي عليه السلام.

وقد وضع العلماء ضوابط لهذا الأمر منها:

1. اتفاق غير المجتهدين لا يعتد به.
2. اتفاق جميع المجتهدين ورأى جمهور الأصوليين أن مخالفة الواحد لا تضر.
3. أن يكون هؤلاء المجتهدون مسلمين.
4. أن يتحقق الاتفاق في لحظة الاجتماع.
5. أن يكون اتفاقهم حول حكم شرعي كالوجوب والحرمة والندب.
6. أن يكون بعد وفاة النبي.

ومتى وقع الإجماع على مسألة شرعية، كان دليلاً شرعياً على حكم هذه المسألة، وصار هذا الإجماع حُجة قطعية ملزمة للمسلمين، وفي كتب الأصول تفصيلٌ أوسع.

ونحن في عصرنا الحاضر أحوج ما نكون لهذا المصدر لما يستجد من أمور ومستجدات للمسلمين.

رابعاً . القياس:

عرّف الأصوليون القياس بأنه: إلحاق ما لم يرد فيه نص على حكمه، بما ورد فيه نص على حكمه في الحكم، لاشتراكهما في علة ذلك الحكم.

وللقياس أركان أربعة هي:

1. **الأصل**: وهو ما يُسمى بالمقيس عليه.

2. **حكم الأصل:** وهو الحكم الشرعي الذي ورد به النص في الأصل ويُراد تعديته للفرع

3. **الفرع:** ويُسمى بالمقيس وهو ما لم يرد نص بحكمه.

4. **العلة:** وهي الوصف الموجود في الأصل، وبناءً على وجوده في الفرع يُراد تسويته بالأصل في الحكم.

ولقد وضع علماء الأصول شروطاً كثيرة للأصل والفرع والعلة المشتركة، وفصّلوا في ذلك تفصيلات كثيرة، مكانها كتب الأصول.

كذلك بيّنوا أن القياس أنواع ثلاثة:

النوع الأول: وسموه بالقياس الأول.

النوع الثاني: وسموه بالقياس المساوي.

النوع الثالث: وسموه بالقياس الأدنى.

أما عن كون القياس حُجة ودليل من أدلة الأحكام، فقد اتفق الجمهور على كونه دليلاً، وخالفت في ذلك بعض المعتزلة والجعفرية والظاهرية.

وعندنا أن ما ذهب إليه الجمهور هو الأرجح في كون القياس دليلاً من أدلة الأحكام.

خامساً. الاستحسان:

كما عرّفه عبد الوهاب خلّاف: هو عُدول المجتهد عن مقتضى قياس جليّ إلى مقتضى قياس خفيّ، أو عن حكم كُلي إلى حكم استثنائي لدليل انقدح في عقله رجّح لديه هذا العدول. [1]

وللاستحسان أنواع متعددة منها:

1. استحسان بالنص وهو ما كان مستنده النص (القرآن أو السُنة).
2. الاستحسان بالإجماع.
3. استحسان سنده العرف.
4. استحسان بالضرورة.
5. استحسان بالمصلحة.
6. استحسان بالقياس الخفي.

أما عن حجية الاستحسان فيقول عبد الكريم زيدان:

أخذ كثير من العلماء بالاستحسان واعتبروه دليلاً من أدلة الأحكام وأنكره بعضهم كالشافعية حتى نُقل عن الإمام الشافعي أنه قال: " الاستحسان تلذذ وقول بالهوى وقال من استحسن فقد شرع " [2].

---

(1) انظر: خلاف: علم أصول الفقه، ص 88.

(2) انظر: زيدان: الوجيز في أصول الفقه، ص 234.

سادساً . المصالح المرسلة:

وهي جلب المنفعة ودفع المضرة أي المفسدة كما عرفها الإمام الغزالي فلها جانب إيجابي وجانب سلبي: إيجابي وهو إيجاد المنفعة وسلبي وهو دفع المفسدة والمصالح المرسلة عند الأصوليين مصلحة لأنها تجلب نفعاً وتدفع ضراً وهي مرسلة لأنها مطلقة عن اعتبار الشارع أو إلغائه.

ولقد وضع العلماء شروطاً للعمل بالمصالح المرسلة على رأسها:

1. الملائمة: وهي أن تكون ملائمة لمقاصد الشرع، فلا تخالف أصلاً من أصوله.
2. أن تكون معقولة بذاتها بحيث أن يقبلها العقل السليم.
3. أن يكون العمل بها لحفظ ضروري أو لرفع حرج.

أما عن حجية العمل بالمصالح المرسلة:

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: " هذا الأصل مختلف فيه بين فقهاء المسلمين فالحنفية والشافعية لم يعتبروه أصلاً قائماً بذاته، وأدخلوه في باب القياس، فإن لم يكن للمصلحة نص يُمكن ردها إليه فإنها مُلغاة لا تعتبر. وقال مالك والحنابلة أن المصالح المرسلة مُعتبرة، يُؤخذ بها ما دامت مستوفية للشروط، فإنها تكون محققة لمقاصد الشارع، وإن لم يكن لها نص خاص ". [1]

---

[1] انظر: أبو زهرة: أصول الفقه، ص 222.

ولكل فريق من القائلين بالمصالح المرسلة أو الرادين لها أدلة مذكورة في كتب الأصول لمن أراد المزيد من المعرفة.

سابعاً. سد الذرائع:

عرّفه أبو زهرة قائلاً: " الذريعة معناها الوسيلة، والذرائع في لغة الشرعيين ما يكون طريقاً لمحرم أو لمحلل فإنه يأخذ حكمه، فالطريق إلى الحرام حرام، والطريق إلى المباح مباح، وما لا يُؤدى الواجب إلا به فهو واجب، فالزنا حرام والنظر إلى عورة المرأة الذي يُفضي إليه حرام أيضاً، والجمعة فرض فترك البيع لأجل أدائها واجب لأنه ذريعة إليها". [1]

وقد اختلف العلماء حول كون هذا الأصل دليلاً من أدلة الأحكام أم لا: فقال المالكية والحنابلة به ورده الشافعية والظاهرية. أما نحن فنقول به لما تفرضه علينا مستلزمات عصرنا الحاضر وضروراته على مستوى كثير من المحاور السياسية والاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والعلاقات الدولية.

يقول دكتور عبد الكريم زيدان: " أصل سد الذرائع يُؤكد أصل المصالح، ويُوثقه ويشد أزره، لأنه يمنع الأسباب والوسائل المفضية إلى المفاسد، وهذا وجه أكيد من وجوه المصلحة، فهو إذنٌ متممٌ لأصل المصلحة ومُكمّل لها، بل وقد تُعتبر بعض صور المصالح المرسلة ولهذا نرى من أخذ بمبدأ المصلحة وحمل لوائه وهم المالكية ومن تابعهم أخذوا بالذرائع فقالوا بسدها إذا

[2] انظر: المصدر السابق: ص 228.

أدت إلى مفسدة، وبفتحها إذا أدت إلى مصلحة راجحة، ولو كانت الوسيلة بذاتها محرمة، وكذلك أجازوا للدولة الإسلامية أن تدفع مالاً لدولة العدو اتقاءً لشرها إذا كانت الدولة الإسلامية ضعيفة، وقالوا بجواز دفع المال على سبيل الرشوة إذا تعينت طريقاً لدفع ظلم أو معصية ضررها أشد من ضرر دفع المال وقالوا بجواز دفع المال للدولة المحاربة فداءً للأسرى من المسلمين مع أن دفع المال للدولة المحاربة لا يجوز ولكنه جاز هنا لدفع ضرر أكبر أو لجلب مصلحة أكبر ". [1]

ثامناً . العُرف:

والعُرف والعادة شيئًا واحداً، وهو ما ألفه المجتمع واعتاده وسار عليه في حياته من قول أو فعل:

فالعُرف العملي: ما اعتاده الناس من أعمال كتقسيم المهر إلى معجل ومؤجل.

والعُرف القولي: ما تعارف عليه الناس في بعض ألفاظهم بأن يريدوا معنىً معيناً غير المعنى الموضوع له. مثل إطلاق لفظ الولد على الذكر دون الأنثى.

والعُرف ينقسم إلى قسمين:

- **عُرف صحيح:** وهو ما لا يخالف نصاً من نصوص الشريعة ولا يُفوت مصلحة معتبرة ولا يجلب مفسدة راجحة.

---

[1] انظر: زيدان: الوجيز في أصول الفقه، ص250-251.

- **عُرف فاس:** وهو ما كان مخالفاً لنص الشارع أو يجلب ضرراً أو يدفع مصلحة.

واشترط العلماء للعُرف كي يكون معتبراً شروطاً منها:

1- أن لا يكون مخالفاً للنص (قرآن أو سُنة) و أن يكون عُرفاً صحيحاً .

2- أن يكون عُرفاً غالباً مطرداً أي تكون العادة كلية.

3- أن يكون العُرف الذي يحمل عليه التصرف موجوداً لا عُرفاً سابقاً .

4- أن لا يوجد قول أو عمل يخالف مضمون هذا العُرف أو هذه العادة.

أما عن حجية اعتبار العُرف دليل من أدلة الأحكام فقد اعتبر العلماء العُرف أصلاً من أصول الاستنباط، ومن أقوالهم " المعروف عُرفاً كالمشروط شرطاً " . وقولهم " العادة مُحكمة ".

تاسعاً . قول الصحابي:

اشتهر جماعة من الصحابة بالفقه، والقدرة على استنباط الأحكام من مصادرها، وكانت لهم فتاوى وأقضية وآراء شرعية في أمور كثيرة، وقد تعرض علماء الأصول للكلام على الفتاوى والآراء الشرعية وبحثوا فيها من ناحية اعتبارها مصدراً شرعياً للأحكام، واختلفت أقوال العلماء حولها .

إلا أنه لا خلاف حول قول الصحابي الذي لم يُعرف له مخالف من الصحابة، يكون حُجة على المسلمين وإنما الخلاف حول قول الصحابي الصادر عن رأيه واجتهاده ولم تتفق عليه كلمة الصحابة.

والرأي الراجح عندي أن هذا القول الأخير المعتمد على الرأي والاجتهاد لا يُعتبر مصدراً تشريعياً.

- **الاستصحاب:**

وهو استدامة إثبات ما كان ثابتاً، أو نفي ما كان منفياً، أو هو بقاء الأمر على ما كان عليه ما لم يُوجد ما يغيره، فكل أمر علم وجوده ثم حصل الشك في عدمه فإنه يحكم بقائه بطريق الاستصحاب لذلك الوجود السابق.

وللاستصحاب أنواع كما ذكرها العلماء:

1- استصحاب الحكم الأصلي للأشياء: وهو الإباحة عند عدم الدليل على خلافه.
2- استصحاب العدم الأصلي أو البراءة الأصلية: كالحكم ببراءة الذمة من التكاليف الشرعية والحقوق حتى يُوجد الدليل الذي يدل على شغلها بشيء من ذلك كالالتزام أو الإتلاف.
3- استصحاب ما دل الشرع على ثبوته لوجود سببه حتى يقوم الدليل على زواله: كثبوت الملك عند وجود السبب الذي يفيده.

ولقد لاحظ العلماء أن الاستصحاب في الحقيقة لا يُثبت حكماً جديداً ولكنه يستمر به الحكم السابق الثابت بدليله المعتبر، وأن الاستصحاب لا يُصار إليه إلا عند عدم وجود الدليل الخاص في حكم المسألة.

وبالاستصحاب تقررت جملة قواعد ومبادئ منها:

1- الأصل في الأشياء الإباحة.

2- الأصل براءة الذمة أو الأصل في الذمة البراءة.

3- اليقين لا يزول بالشك.

إن الاستصحاب يجعل الفقهاء في سعة، ويُخلصهم من مواقف الحيرة والتردد، ويفتح لهم طريقاً يُصدرون بها الفتوى في يسر، وينفذون منها إلى الفصل في القضايا في سرعة، وزيادة على ما فيه من الدلالة على سماحة الإسلام وأنه دين الفطرة الذي لا يشعر المستظلون بلوائه بحرج فيما شرع لهم من أحكام [1].

شرع من قبلنا: وهو ما سنفصله في الصفحات التالية.

(1) انظر: زكي الدين شعبان: أصول الفقه الإسلامي، ص214.

المبحث الأول

معنى شرع من قبلنا

المراد بشرع من قبلنا ما نُقل إلينا من أحكام تلك الشرائع التي أُنزلت على الأنبياء السابقين قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتي كان الناس آنذاك مكلفين بالعمل بها بناء على أنها شرع الله عز وجل وهي ما بينه لهم رُسلهم عليهم السلام.

يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف: إذا قص القرآن الكريم أو السُنة الصحيحة حكماً من الأحكام الشرعية التي شرعها الله لمن سبقنا من الأمم على ألسنة رسلهم ، ونص على أنها مكتوبة علينا كما كانت مكتوبة عليهم فلا خلاف في أنها شرع لنا وقانون واجب إتباعه بتقدير شرعنا لها كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (البقرة: **183**).

وإذا قص القرآن الكريم أو السُنة الصحيحة حكماً من هذه الأحكام، وقام الدليل الشرعي على نسخه ورفعه عنا فلا خلاف في أنه ليس شرعاً لنا بالدليل الناسخ من شرعنا، مثل ما كان في شريعة موسى من أن العاصي لا يُكفّر ذنبه إلا أن يقتل نفسه، ومن أن الثوب إذا أصابته نجاسة لا يُطهره إلا قطع ما أصيب منه وغير ذلك من الأحكام التي كانت إصراً حمله الذين من قبلنا ورفعه الله عنا . [2]

---

[1] انظر: خلّاف: علم أصول الفقه، ص 105.

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ (البقرة: 286)، هو دعاء ينبعث من وراثة الأمة المسلمة لتراث الرسالة كله ومعرفتهم كما علمهم ربهم في هذا القرآن بما كان من سلوك الأمم التي جاءتها الرسالات قبلهم وما حمّلهم الله من الآصار والأثقال عقوبة لهم على بعض ما كان منهم، فقد حُرّم على بني إسرائيل بعض الطيبات بعملهم ، وآية الأنعام دالة على ذلك: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ (الأنعام: 146) ، وكتب عليهم قتل أنفسهم تكفيراً عن عبادتهم للعجل كما سبق في أول هذه السورة وحرّم عليهم السبت: أن يبتغوا فيه التجارة أو الصيد وهكذا فالمؤمنون يدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالاً كالتي حملها الذين من قبلهم. وقد بعث الله النبي الأميّ يضع عن المؤمنين به من البشر كافة ﴿ إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ فجاءت هذه العقيدة سمحة مُيسرة هينة لينة تنبع من الفطرة وتتبع خط الفطرة، فهذه الآصار والأغلال لم تكن شرعاً لنا حيث أن الأمر الأكبر الذي رفعه الله عن كاهل الأمة المسلمة والذي حمله الله على عاتق الأمم السابقة هذا الإصر الأكبر هو اصر العبودية للبشر فشريعة الإسلام جاءت لعبودية الله وحده متمثلة في تلقي الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري، الانطلاق والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة ومن سلطان السدنة والكهنة ومن سلطان العُرف والعادة

ومن كل سلطان زائف يمثل الإصر الذي يلوي أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهار.[1]

وحول هذه النقطة يقول الدكتور سعيد الخُن:

هذا الذي يُطلق عليه أنه شرع من قبلنا يقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما قصه علينا القرآن الكريم والسُنة الصحيحة، ونص على أنه كان شريعة لهم وبين أن هذه الأحكام مكتوبة عليهم، فهذه الأحكام لا شك أنها عند العلماء شريعة لنا وذلك كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: **183**) وكمشروعية الأضحية، فقد ورد في الحديث عن زيد بن الأرقم قال: قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ما هذه الأضاحي، قال: " سنة أبيكم إبراهيم "، قالوا: فما لنا فيها يا رسول الله، قال: "بكل شعرة حسنة " قالوا: فالصوف يا رسول الله، قال: " بكل شعرة من الصوف حسنة ".[3]

القسم الثاني: ما قصه علينا القرآن الكريم أو السُنة الصحيحة ونص على أنه كان شريعة من قبلنا، ولكنه بيّن أن هذا منسوخ في حقنا، فهذا أيضاً لا خلاف بين العلماء على أنه لا يجوز العمل به لوجود الناسخ، وذلك مثل ما كان في شريعة موسى عليه السلام من أن العاصي لا

---

(1) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ص 1 / 346، بتصرف.

(3) أخرجه ابن ماجه في سُننه: كتاب الأضاحي، باب: ثواب الأضحية، رقم (3127)، ص 1045/2.

يُكفّر ذنبه إلا أن يقتل نفسه، ومن أن التوب إذا أصابته نجاسة لا يُطهره إلا قطع ما أُصيب منه، وما حُرّم على بني إسرائيل من أكل الشحوم وبعض الحيوانات قال تعالى: ﴿ **قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (الأنعام: 145 ـ 146) .

وكما في قوله عليه السلام: " **أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلت لي الغنائم ولم تُحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصةً وبُعثت إلى الناس عامة** " . [1]

القسم الثالث: ما قصه علينا القرآن الكريم أو السُنة الصحيحة من أحكام الشرائع قبلنا، ولكن لم يرد في شرعنا ما يدل على أنه مكتوب علينا أو منسوخ في حقنا، وذلك كما في قوله تعالى مخبراً عما في التوراة: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ﴾ (المائدة: 45) .

وكما في قوله تعالى: ﴿ **وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ** ﴾ (القمر: 28)

فهذا هو النوع الذي وقع الاختلاف في الاحتجاج به هل هذه الأحكام شرع لنا وملزمون بالعمل

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التيمم، رقم (335) ص 1/ 125.

بها، أو أنها نُقلت إلينا على سبيل الإخبار وليس علينا امتثالها ولا الإقتداء بها ولا القياس عليها . (2)

وهنا يلزمنا قبل الحديث عن الاحتجاج بشرع من قبلنا نود أن نوضح الآتي:

1. لا خلاف بين العلماء على أن شريعة الإسلام قد نسخت جميع الشرائع السابقة عليها جملة وتفصيلاً .
2. أن هناك من الأمور المتفق عليها عند كل الشرائع، كأمور العقيدة وثوابت الأخلاق، لم تتعرض لنسخ كالإيمان بالله وحُرمة القتل وحرمة شرب الخمر وحرمة الزنا .
3. لا خلاف أيضاً بين العلماء حول ما نُقل إلينا من شرائع من قبلنا في كتب أصحابها أو على ألسنة أتباعها أنه ليس بحجة علينا ، ولا يجب العمل به، ولا يجوز، لأنه ثبت في القرآن الكريم تحريف أهل الكتاب لكتبهم وقد يكون هذا المنقول إلينا من الأشياء التي حرفوها .

يقول الدكتور وهبة الزحيلي: هذا الموضوع يمُثل مدى صلة الشريعة الإسلامية بالديانات والشرائع السابقة، فمن القضايا المعروفة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في سن الأربعين سنة 611م وأن شريعته هي خاتمة الشرائع وقد أخبر القرآن الكريم والسُنة الشريفة عن قصص الأنبياء السابقين وبعض الأحكام التشريعية في شرائعهم.[1]

(2) انظر : الخُن: الكافي الوافي في أصول الفقه، ص 233 –234.

[1] انظر : الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، ص867.

لهذا كان ضرورياً معرفة أنواع شرع من قبلنا وقد قسمها الدكتور عبد الكريم زيدان إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: أحكام جاءت في القرآن الكريم أو في السُنة، وقام الدليل في شريعتنا على أنها مفروضة علينا كما كانت مفروضة على من سبقنا من الأمم والأقوام، وهذا النوع من الأحكام لا خلاف في أنه شرع لنا ومصدر مشروعيته وحجيته بالنسبة إلينا هو نفس نصوص شريعتنا، من ذلك فريضة الصيام.

النوع الثاني: أحكام قصها الله في قرآنه أو بينها الرسول عليه السلام في سُنته، وقام الدليل من شريعتنا على نسخها في حقنا، أي أنها خاصة بالأمم السابقة فهذا النوع لا خلاف في أنه غير مشروع في حقنا، من ذلك تحريم بعض المطعومات وحل الغنائم للمسلمين كما في آيات سورة الأنعام السابق ذكرها (145-146).

النوع الثالث: أحكام لم يرد لها ذكر في كتابنا ولا في سُنة نبينا عليه السلام، وهذا النوع لا يكون شرعاً لنا بلا خلاف بين العلماء.

النوع الرابع: أحكام جاءت بها نصوص الكتاب الكريم أو السُنة المطهرة، ولم يقم دليل من هذه النصوص على بقاء الحكم أو عدم بقائه بالنسبة لنا، كآية القصاص الوارد ذكرها في سورة المائدة، الآية (45) فهذا النوع هو الذي وقع الخلاف فيه وأُختلف في حجيته بالنسبة لن، فذهب بعض العلماء كالحنفية إلى حجيته وأنه يُعتبر كجزء من شريعتنا وذهب آخرون إلى أنه ليس بشرع لنا واستدل كل فريق بأدلة تأيداً لمذهبه، والحق أن هذا الخلاف غير مهم لأنه لا

يترتب عليه اختلاف في العمل، فما من حكم من أحكام الشرائع السابقة، قصه الله تعالى علينا أو بينه الرسول عليه الصلاة والسلام إلا وفي شريعتنا ما يدل على نسخه أو بقائه في حقنا سواء جاء دليل الإبقاء أو النسخ في سياق النص الذي حكى لنا حكم الشرائع السابقة أو جاء ذلك الدليل في مكان آخر من نصوص الكتاب أو السُنة. (1)

كذلك نجد في قوله تعالى: ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (البقرة: 106)، وإن كان هذا الخطاب خطاباً للنبي عليه السلام على وجه الإخبار عن عظمته إلا أنه تكذيب لليهود الذين أنكروا النسخ، نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما السلام لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغير ما في التوراة، فأخبر الله أنه له الملك، مُلك السماوات والأرض وسلطناهما وأن الخلق أهل مملكته وعليهم طاعته والسمع له.

والذي حمل اليهود على البحث في مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد فإنه كما يقول ابن كثير: ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله، لأنه يحكم ما يشاء، كما أنه يفعل ما يُريد على أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرّم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حِل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حُرّم ذلك في شريعة التوراة

(1) انظر: زيدان: الوجيز في أصول الفقه، ص 363- 365.

وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل. [3]

ففي هذا المقام بيّن الله تعالى جواز النسخ رداً على اليهود عليهم لعنة الله. والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله لما في ذلك من الحكمة البالغة.

ونذكر هنا ثبوت أحكام الآية ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾ (المائدة: 45) بدليل من شريعتنا لأن بعض الناس يدعّي أن القصاص في الجروح والأعضاء ليس شرعاً لنا، وإنما هو شرع من قبلنا، فلا يلزمنا وهذا وهمٌ محض لا يقوم على حُجة وبرهان، فلا خلاف بين العلماء في أن أحكام هذه الآية ثابتة في حقنا وأنها جزء من شريعتنا.

قال الشافعي في صدد هذه الآية **ذكر الله تعالى ما فرض على أهل التوراة فقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾**.

ولم أعلم خلافاً في أن القصاص في هذه الآية كما حكى الله عز وجل أنه حكم بين أهل التوراة ولم أعلم خلافاً في أن القصاص بين الحرين المسلمين في النفس وما دونها من الجراح التي يستطاع فيها القصاص بلا تلف يخاف على المستقاد منه من موضع القود.

وحكى ابن كثير في تفسيره الإجماع أيضاً على العمل بموجب الآية، فأحكام هذه الآية معمول بها في حقنا على رأي كلا الفريقين القائلين بشرع من قبلنا والمخالفين لهم في ذلك، الأولون

---

[3] انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص 1/ 264-265.

يحتجون بها وفقاً لمذهبهم والآخرون يحتجون بها لأن الدلائل من شريعتنا قامت على شرعيتها بالنسبة إلينا .[1]

وحول أقسام شرع من قبلنا أفرد الدكتور محمد شلبي في كتابه أصول الفقه فصلاً تحدث فيه حول هذه النقطة:

فقال الشرائع قسمان:

القسم الأول: ما لم يرد أصلاً في شريعتنا وهذا لا نزاع في أننا غير متعبدين به لأنه لا طريق إلى معرفته إلا بالنقل عنهم وهم غير مؤتمنين بالنقل بعد أن ثبت تبديلهم وتحريفهم في كتبهم، وكذلك لم يُؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لجأ إلى البحث عن حكم في الشرائع فيما لم ينزل عليه وحي فيه، وما روي أنه سأل اليهود عن حكم الرجم مذكور في التوراة وإنكار اليهود ذلك، ولهذا لم يرجع إليها فيما سوى ذلك، وروي عنه صلى الله عليه وسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه أمام النبي صلى الله عليه وسلم فغضب فقال " أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو باطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني " .[2]

(1) انظر: زيدان: الوجيز في أصول الفقه، ص 2650-266.

(2) أخرجه أحمد في مسنده: 378/3، رقم (15094).

القسم الثاني: ما ورد ذكره في شريعتنا وهو نوعان:

النوع الأول: ما ثبت نسخه بنص في شريعتنا كتحريم كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم على اليهود الذين أخبر الله عنهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا** ﴾ (الأنعام: 146) فإن الله نسخ ذلك التحريم في شريعتنا في قوله هذه الآية ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ ....

ومثله في ذلك الغنائم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي "، فإن هذا الحديث يفيد أن الغنائم كانت محرمة على الأمم السابقة ثم نسخ الله ذلك التحريم بالنسبة إلينا وهذا النوع لسنا متعبدين به بالاتفاق.

النوع الثاني: لم ينص على نسخه في شريعتنا وهو صنفان: صنف نص على أنه مكتوب عليهم أو قرّر مثله في شريعتنا من ذلك تشريع الصيام الذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ (البقرة: 183)، وقوله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾ (المائدة: 45)، فإنه جاء في شريعتنا ما يُماثله مع اختلاف في بعض تفصيلاته، في قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى**﴾ (البقرة: **178**)، ومن ذلك الأضحية فإنها سُنة إبراهيم عليه السلام وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ضحوا فإنها سُنة أبيكم إبراهيم** " . [1]

---

[1] سبق تخريجه.

وصنف آخر لم ينص على ذلك بل قصه الله علينا في كتابه أو على لسان نبيه وهذا الذي يتصور أن يكون موضع خلاف كما حققه غير واحد من العلماء:

فمن ذاهب إلى أننا غير متعبدين بهذا الصنف ومن قائل إننا متعبدون به.

ومن أمعن النظر في هذه المسألة وجد الخلاف فيها لا معنى له لأنه فيما ورد في شريعتنا حكاية عنهم في كتاب الله أو سُنة نبيه ولم يظهر له ناسخ.

والشرائع السابقة شرائع خاصة موقوتة صالحة لزمانها تنسخ كل شريعة ما قبلها فيما يخالفها، وشريعتنا عامة غير موقوتة صالحة لكل زمان ومكان، فهي ناسخة لكل ما يُخالفها من الشرائع السابقة حيث أن هذا القدر لم يوجد له ناسخ في شريعتنا فيكون شريعة لنا لاعتبار أنه شرع نبي سابق بل باعتبار أنه شرع نبينا كما صرح به غير واحد من القائلين بأننا متعبدون بها لاتفاق الطرفين على أن ما لم يرد له ذكر في شريعتنا ليس شرع لنا ولم نُكلف بالبحث عنه، فضلاً عن وجوب العمل به.

فما جاء في شريعتنا دون إنكار فنحن مأمورون به لكونه جاء في شريعتنا، لا لكونه شرع من قبلنا حتى يُعد ذلك أصلاً من أصول شريعتنا، والذين قالوا أنه دليل لم يجعلوه دليلاً مغايراً للقرآن والسُنة بل جعلوه داخلاً فيهما، وكون الرسول صلى الله عليه وسلم وافق اليهود في صوم يوم عاشوراء الذي قال بشأنه عندما علم أن اليهود تصومه " إننا أحق بموسى منهم "، لا يدل على أنه صامه لمجرد أنه مشروع عندهم بل يُحتمل أنه صامه اجتهاداً منه قبل أن تنزل الأحكام التفصيلية وأقره الوحي عليه شأن اجتهاداته كلها لأنه في ذاته قربة وعبادة.

يدل لذلك ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال: لما صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فإذا كان العام المقبل صمنا يوم التاسع " فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم. [1]

وفي رواية لأحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود وصوموا قبله يوماً أو بعده يوماً** ". [2]

وقد كان من سُنته عليه السلام مخالفة اليهود بعد نزل الكثير من الأحكام التفصيلية في المدينة المنورة.[3]

ونختتم هذا الفصل بما قاله الشيخ محمد أبو زهرة: ولقد نجم عن ذلك كلام في شرع من قبلنا من الشرائع السماوية أهو معمول به في الإسلام إذا لم يقم الدليل على نسخ الإسلام لذلك الحكم، أم أنه لا يُؤخذ به كأصل قائم بذاته ولا بد أن نذكر **أموراً ثلاثة**.

أولها: أن أحكام شرع من قبلنا لا تتعرف من غير المصادر الإسلامية، فلا عبرة بالنقل من غير هذه المصادر لأنه لا حُجة في النقل عند المسلمين إلا المصادر الإسلامية ذاتها وذلك باتفاق فقهاء الإسلام.

[1] أخرجه أبو داود في سُننه: كتاب الصوم، باب: ما روي أن عاشوراء اليوم التاسع، رقم (2445)، ص 2/ 339.

[2] أخرجه أحمد في مسنده: 241/1. رقم (2154).

[3] انظر: محمد شلبي: أصول الفقه الاسلامي، ص 350- 356.

الأمر الثاني: أن ما يثبت بالدليل الإسلامي على أنه نُسخ فإنه لا يُؤخذ به، وكذلك ما قام الدليل على أنه كان خاصاً بالأقوام الذين شُرّع لهم، فإنه لا يسري في الإسلام كتحريم بعض أجزاء من اللحوم على بني إسرائيل وذلك باتفاق أيضاً .

الأمر الثالث: أن ما يثبت بالنص الإسلامي أنه مُقرر في الإسلام كما كان مُقرراً في الأديان السماوية السابقة فهو ثابت بالنص الإسلامي لا بالحكاية عن السابقين، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: 183) [1] .

[2] انظر: أبو زهرة: أصول الفقه، 242 .

المبحث الثاني
شرع من قبلنا هل هو شرع لنا

لقد وجد العلماء أن شريعتنا لم تنسخ كل أحكام الشرائع السابقة، بل نسخت البعض فقط، فجاءت متفقة معها في بعض الأحكام موافقة تامة، وذلك فيما يتعلق بالعقائد كتوحيد الله وتحريم الشرك والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب، وبعض التشريعات العملية التعبدية كوجوب إقام الصلاة والصوم: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ (البقرة: 183) وكذلك وجوب القصاص في العدوان على النفس والأعضاء. وقد جاء ذلك صريحاً في القرآن الكريم والسُنة النبوية الصحيحة، حيث قص علينا بعض ما شرع فيها مع التصريح بأنه شرع لنا مثله في بعضها والسكوت عن ذلك في بعضها الآخر، كما قص بعض تشريعاتهم الخاصة التي لم تُشرع في حقنا، كما وجدنا بعض الفقهاء استدلوا بما جاء في القرآن حكاية عن الشرائع السابقة.

وحول هذه المسألة يقول صاحب كتاب معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة:

إن لهذه المسألة طرفان وواسطة:

(1) طرف يكون فيه شرع من قبلنا شرعاً لنا إجماعاً.

(2) وطرف يكون شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا إجماعاً.

(3) وواسطة هي محل الخلاف.

أما الطرف الأول: الذي يكون فيه شرع من قبلنا شرعاً لنا إجماعاً فهو ما ثبت أولاً أنه شرع لمن قبلنا وذلك بطريق صحيح وثبت ثانياً أنه شرع لنا بالنص عليه وذلك لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ (البقرة: 183).

وأما الطرف الثاني: وهو الذي يكون فيه شرع من قبلنا غير حجة إجماعاً فهو أحد أمرين:

الأول: ما لم يثبت بطريق صحيح أصلاً، كالمأخوذ عن الإسرائيليات.

الثاني: ما ثبت بطريق صحيح أنه شرع لمن قبلنا وصُرّح عنه في شرعنا، كالإصر والأغلال التي كانت عليهم كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ (الأعراف : 157).

والواسطة التي وقع فيها الخلاف: هي ما اشتملت على ثلاثة ضوابط:

الأول: أن يثبت أنه شرع لمن قبلنا بطريق صحيح، وهو الكتاب والسُنة الصحيحة، ويكفي الآحاد في ذلك فإن ورد بطريق غير صحيح لم يكن شرعاً لنا بلا خلاف.

الثاني: ألا يرد في شرعنا ما يُؤيده ويُقرره، فان ورد في شرعنا ما يُؤيده كان شرعاً لنا بلا خلاف.

الثالث: ألا يرد في شرعنا ما ينسخه ويبطله، فإن ورد في شرعنا ما ينسخه لم يكن شرعاً لنا بلا خلاف، ومن المعلوم أن ذلك لا يكون في أصول الدين وأمور العقيدة، لأنها مما اتفق عليه بين الأنبياء جميعا كما تقدم.[1]

ومن خلال دراستنا نجد أن ابن عباس سجد لما قرأ قوله تعالى: ﴿ **وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ** ﴾ (ص: 24)، وقرأ قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام: 90)، وما رُوى عن الإمام أحمد ابن حنبل أنه سُئل عمن حلف لينحرن ولده فقال: عليه كبش يذبحه ويتصدق به أو بلحم وقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾ (الصافات: 107)، فقد أوجب الكبش واحتج بالآية عليه وهي شريعة إبراهيم عليه السلام وعندما سُئل عن القرعة أجاب بأنها مشروعة لأنها في كتاب الله في موضعين قال تعالى: ﴿ **فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ** ﴾ (الصافات: 141)، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ (آل عمران: 44)، فقد احتج بالآيتين في إثبات القرعة مع العلم أن الأُولى في شريعة يونس والثانية في قصة مريم.

أذن الأحكام التي شرعها الله للأمم السابقة وهبط بها الوحي على الأنبياء السابقين وقفت شريعة الإسلام بالنسبة لمشروعيتها لنا عدة وقفات:

---

[1] انظر: الجيزاني: معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، ص 231، 232.

وتطبيقاتها علينا مواقف ثلاثة:

الموقف الأول: إقرار الشريعة المحمدية لبعض الأحكام التي وردت في الشرائع السابقة وذلك بأن يذكر المصدر الإسلامي سواء كان كتاباً أو سُنة هذه الأحكام وينص على أنها واجبة التطبيق على الأمة المحمدية، فهذا القرآن الكريم ينطق في صراحة بأن الصوم كان واجباً على الأمم التي كانت قبلنا وينص على أنه واجب علينا أيضاً وها هي السُنة النبوية تنص على أن الأضحية مشروعة في ملتنا كما كانت مشروعة في ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام. فهذه الأحكام التي اثبت الكتاب تقريرها في الشريعة المحمدية كما كانت مقررة في الشرائع السابقة تسري على المسلمين وتُطبق عليهم بلا خلاف بين العلماء .

الموقف الثاني: نسخ الشريعة المحمدية لبعض الأحكام التي وردت في الشرائع السابقة، وذلك بأن يذكر المصدر الإسلامي أنها كانت مشروعة للأمم السابقة ثم يذكر نسخها ورفعها بالنسبة لأمة محمد عليه السلام. ونجد ذلك واضحاً جلياً في حديث (حِل الغنائم) فهذا الحديث يدل على أن ما يُؤخذ من الأعداء أثناء الحرب كان محرماً على الغانمين فيما مضى من الزمن، ثم نُسخ هذا التحريم بالنسبة إلينا، وأُحلت لنا الغنائم. فهذا الحكم وأضرابه مما أثبت النص الإسلامي أنه كان مقرراً في الشرائع السابقة وخاصةً بالأمم السالفة ومنسوخاً بالنسبة لأمة محمد عليه السلام لا يُطبق على أمتنا ولا يسري عليها بلا خلاف بين العلماء .

الموقف الثالث: سرد المصادر الإسلامية ما كان موجوداً من الأحكام في الشرائع السالفة دون تعرض لإبقاء الأحكام أو إلغائها بالنسبة إلينا وذلك كما في آية الإصر والأغلال. فهذه

الآية الكريمة سردت هذه الأحكام ونصت على تطبيقها على الأمم الماضية ولم تتعرض بعد ذلك لإقرار هذه الأحكام علينا أو إلغائها بالنسبة إلينا . هذه الأحكام التي تُذكر مطلقة عن الإقرار أو الإلغاء ولم تُذكر إلا على سبيل أنها كانت مُطبقة على الأمم الماضية، هي مثار الخلاف بين العلماء .

فها نحن أولاء نرى جمهور الحنفية والحنابلة في أحد الروايتين وبعض الشافعية والمالكية يرون مشروعية هذه الأحكام بالنسبة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. كما نرى الأشاعرة والمعتزلة وبعض العلماء يرون عدم مشروعية هذه الأحكام علينا واستدلوا على ذلك بحديث معاذ بن جبل حين بعثه قاضياً إلى اليمن قال له " بما تحكم بين الناس " قال بكتاب الله، قال " فإن لم تجد"، قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال " فإن لم تجد" قال أجتهد ولا أقصر في اجتهادي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره وقال " الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي الله و رسوله " فهاهو معاذ لم يذكر شيئاً من كتب الأنبياء وسُنتهم ضمن المراجع التي يرجع إليها في الحكم وقد أقره النبي عليه السلام على ذلك ودعا له. فلو كانت الشرائع السابقة يجب الرجوع إليها والحكم بها لما جاز العدول عنها إلى اجتهاد الرأي إلا بعد البحث فيها واليأس من معرفتها . قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ**﴾ (المائدة: 44)، ففي هذه الآية الكريمة التصريح بأن التوراة يحكم بها النبيون ومن ضمنهم محمد صلى الله عليه وسلم، فوجب عليه الحكم بالتوراة، وبناء على هذا فإن الشرائع السابقة تُطبق على أمة محمد وتسري عليها . روي أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم رجع إلى التوراة في رجم اليهودي فهذا محمد عليه السلام يُطبق ما ورد في شريعة موسى عليه السلام على الأمة المحمدية مما يدل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ. على أن الحق أن شرع من قبلنا لا يُعتبر دليلاً مستقلاً لأنه يرجع إلى الكتاب أو السُنة فإذا قصه الله في كتابه كان راجعاً إلى الكتاب وإذا قصه الرسول على لسانه كان راجعاً إلى السُنة. [1]

ونختم مبحثنا هذا بما قاله الإمام السرخسي: اختلف العلماء في هذا الموضوع على أقاويل فمنهم من قال: ما كان شريعة لنبي فهو باق أبداً حتى يقوم دليل على نسخه، وكل من يأتي فعليه أن يعمل به على أنه شريعة ذلك النبي ما لم يظهر ناسخه.

وقال بعضهم شريعة كل نبي تنتهي ببعث نبي آخر بعده حتى لا يعمل به إلا أن يقوم الدليل على بقائه وذلك ببيان من النبي المبعوث بعده.

وقال بعضهم شرائع من قبلنا يلزمنا العمل بها على أن ذلك شريعة لنبينا، فيما لم يظهر دليل النسخ فيه ولا يفصلون بين ما يصير معلوماً من شرائع من قبلنا بنقل أهل الكتاب أو برواية المسلمين عما في أيديهم من الكتاب وبين ما ثبت بكتاب الله أنه كان شريعة من قبلنا، أو ببيان من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن علينا العمل به على أنه شريعة نبينا عليه السلام ما لم يظهر ناسخه. فأما ما عُلم بنقل أهل الكتاب أو بفهم المسلمين من كتبهم فإنه لا يجب إتباعه لقيام دليل موجب للعلم على أنهم حرّفوا الكتب فلا يُعتبر نقلهم في ذلك لتوهم أن المنقول من

[1] . انظر: البرديسي: أصول الفقه، ص 347.

جملة ما حرّفوا ولا يعتبر فهم المسلمين ذلك مما في أيديهم من الكتاب بجواز أن يكون ذلك من جملة ما غيروا وبدلوا . والدليل على هذه المذاهب قولهم أن محمداً عليه السلام استدل على جواز القسمة بطريق المهايأة في الشرب بقوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ (القمر: 28)، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الشعراء: 155)، وإنما أخبر الله تعالى ذلك عن صالح عليه السلام، ومعلوم أنه ما استدل به إلا بعد اعتقاده بقاء ذلك الحكم شريعة لنبينا عليه السلام، واستدل الشيخ أبو يوسف (صاحب أبي حنيفة) على جريان القصاص بين الذكر والأنثى بقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (المائدة: 45)، وبه كان يستدل الكرخي على جريان القصاص بين الحر والعبد والمسلم والذمي، والشافعي في هذا لا يخالفنا وقد استدل برجم النبي صلى الله عليه وسلم اليهوديين بحكم التوراة كما نص عليه بقوله (إنا أحق من أحيا سُنة أماتوها)على وجوب الرجم على أهل الكتاب وعلى أن ذلك بطريق زيادة شرط الإحصان لإيجاب الرجم في شريعتنا ولمثل هذه الزيادة حكم النسخ عندنا . [1]

وعند ابن حزم:

في كتابه " الإحكام ": واحتج الموجبون للأخذ بشرائع الأنبياء السابقين عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

---

[1] انظر: أصول السرخسي: للإمام أبي بكر ابن أبي سهل، ص 99-100.

(المائدة: 47) .

قال ابن حزم: وهذا لا حُجة لهم فيه فلا خلاف بين اثنين من المسلمين أن هذا منسوخ وأن من حكم بحكم الإنجيل مما لم يأتي بالنص عليه وحي في شريعة الإسلام فإنه كافر مشرك خارج عن الإسلام.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ** ﴾ (المائدة: 44) .

قال ابن حزم وهذا إنما عني لله تعالى به أنبياء بني إسرائيل لا محمداً عليه السلام لأنه تعالى يقول: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (آل عمران: 85) .

وبيان ذلك قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿ **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا** ﴾ (المائدة: 44)، ونحن ليس لنا نبيون وإنما لنا نبي واحد، والأنبياء كلهم مسلمون وقد حكى الله تعالى عن أنبياء سالفين أنهم قالوا أُمرنا بأن نكون من المسلمين وأيضاً فقد قال تعالى حاكياً عن أهل الكتاب أنهم قالوا لنا: ﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** ﴾ (البقرة: 135)، فصح أن الله تعالى نهى عن دين اليهود والنصارى وأمرنا بدين إبراهيم عليه السلام وقال تعالى: ﴿ **لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ**

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: 65) فصح يقيناً أن إبراهيم كانت شريعته قبل التوراة وأن شريعته لازمة فمن المحال الممتنع أن نُؤمر بإتباع شيء نزل بعد شريعتنا.[1]

[1] انظر: ابن حزم: الأحكام في أصول الأحكام، ص 2/173-174.

المبحث الثالث

في شرائع الأنبياء قبل محمد عليهم السلام

شرائع الأنبياء الذين كانوا قبل محمد عليه الصلاة والسلام فالناس فيها على قولين:

قوم قالوا هي لازمة لنا ما لم نُنه عنه.

وقال آخرون هي ساقطة عنا ولا يجوز العمل بشيء منها إلا أن نخاطب في ملتنا بشيء موافق لبعضها فنقف عنده ائتماراً لنبينا لا إتباعاً للشرائع الخالية.

قال الإمام ابن حزم إلا شريعة إبراهيم عليه السلام.

أما شريعة إبراهيم فهي الشريعة التي نحن عليها نفسها والبراهين على ذلك قائمة، وإنما الاختلاف فيما كان من شرائع الأنبياء عليهم السلام موجوداً نصه في القرآن الكريم أو عن النبي صلى الله عليه وسلم، أما ما ليس في القرآن الكريم ولا صح عن النبي عليه السلام فما نعلم من يطلق إجازة العمل بذلك، إلا أن قوماً أفتوا بها في بعض مذاهبهم، فمن ذلك تحريم بعض المالكية لما وجد من ذبائح اليهود ملتصق الرئة بالجنب وهذا مما لا نص في القرآن ولا في السُنة على أنه حُرّم على اليهود، نعم ولا هو أيضاً متفق عليه عند اليهود وإنما هو شيء انفردت به الربانية منهم.

أما ما قاله اليهود من رجم النبي صلى الله عليه وسلم اليهوديين الزانيين، إنما فعل ذلك تنفيذاً لما في التوراة ورأى هو من رأيه الفاسد أن يرفع نفسه عن تنفيذ ما فيها من الرجم على اليهود الزناة المحصنين إذا زنوا فصان نفسه عما وصف به نبيه عليه السلام.

بعض شرائع الأنبياء:

من شرائع سليمان عليه السلام:

قوله تعال: ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴾ (النمل: 20 ـ 21)، قال ابن حزم وهذا لا خلاف بيننا في سقوط عقاب الطير وإن أفسدت علينا ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ(78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ (الأنبياء: 78 ـ79) .

قال ابن حزم: هذا مما اختلف فيه فادعى قوم فيها دعاوى أن سليمان عليه السلام كلّف أصحاب الغنم جبر ما أفسدت من الزرع أو الكرم ليلاً، وهذا باطل لأنه ليس ذلك في الآية، ولا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكر في بعض التفاسير التي لا تصح وذلك من نحو ما ذكر فيها أن ملكين زنيا وقتلا النفس التي حرم الله تعالى وشربا الخمر وقد نزه الله تعالى الملائكة عن ذلك وأن الزهرة التي كانت زانية فمسخت كوكباً مضيئاً يهتدي به في البر والبحر حتى أدت هذه الروايات الفاسدة بعض أهل الإلحاد إلى أن قال: لو كان هذا لما بقيت محصنة إلا زنت للمسخ كوكباً . فهذا قول باطل لا يمكن العمل به.

ومن شرائع موسى عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿ **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً** ﴾ (طه: 12) .

ونحن لا نخلع نعالنا في الأرض المقدسة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ (الأنعام: **146**).

قال ابن حزم: وهذا لا خلاف في أنه منسوخ وأن الله تعالى قد أحل كل ذلك على لسان محمد عليه السلام بقوله

﴿ وطعامكم حل لهم ﴾ وهذه الشحوم من طعامنا فهي حلٌ لهم إن زعمت أنوفهم وأنوف المخبتين إتباعاً لدعوة اليهود في تحريم ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿ **لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ** ﴾ (النساء: 154)، فهذا منسوخ بإجماع.

وقوله تعالى: ﴿ **فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ** ﴾ (البقرة: **54**)، هذا أيضاً منسوخ بإجماع، ومنها الأمر بذبح بقرة صفراء فاقع لونها وهذا لا يلزم في شيء من الأحكام بإجماع.

ومن شريعة لوط عليه السلام:

﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ** ﴾ (القمر: **33 ـ 34**) ، لا يحل في شريعتنا رجم المكذب بالنذر، وقد احتج قوم في رجم من فعل، فعل قوم لوط بهذه الآية: قال ابن حزم ونسوا أن فاعل ذلك من قوم لوط كان كافراً وذلك منصوص بالقرآن الكريم في الآية نفسها إذ أخبر الله تعالى، هم كذبوا بالنذر وصبيانهم ونسائهم

رجموا معهم ولم يكونوا ممن فعل ذلك الفعل ونسوا أيضاً قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ (القمر: 37)، فكان يلزمهم إذ طردوا أصلهم الفاسد أن يسلموا عيني كل من راود ذكر عن نفسه لأن الله طمس أعين قوم لوط إذ راودوا ضيفه، كما رجمهم لما آتوا الذكور وكفروا، فمن فرّق بين شيء من ذلك فقد تحكم في دين الله عز وجل بلا برهان ولا هدى من الله تعالى.

ومن شريعة يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ **قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ (يوسف: 26).

قال ابن حزم: وهذا مما لا خلاف فيه أنه لا يجوز أن نحكم به الآن بين الناس في تداعيهم الزنا.

ومنها قول الله تعالى: ﴿ **وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ** ﴾ (يوسف: 72).

قال ابن حزم فأصبح قوم بهذا في إثبات الجعل، وهذا لا يلزم لأن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أموالكم عليكم حرام " فبطل للجعل إلا أن يوجبه نص في شريعتنا أو تطيب به نفس الجاعل.

ومن شريعة أيوب عليه السلام:

قول الله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ﴾ (ص: **44**) ، فاحتج بهذا قوم في إباحة الزاني والقاذف والشارب إذا كانوا مرضى يعرجون فيه مائة أو ثمانون أو أربعون شمراخاً، وفي بَرّ يمين من حلف ليجلدن غلامه كذا وكذا جلدة.

قال ابن حزم: والذين احتجوا بدعواهم في كلام الميت في أمر بقرة بني إسرائيل أن فلاناً قتلني يأبون هنا من أن يبرأ الحالف إذا ضرب بضغث و يكفي هذا من قبيح التناقض وفاحشه، ونحن وإن كنا نرى الجلد بالضغث للمريض فإنما نجيزه من غير هذه الآية، لكن الحديث المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أمر لأن يجلد المريض الذي زنا: عن سعد بن عبادة أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم برجل كان في الحي مخدج سقيم وُجد على أَمة من إمائهم يخبث بها فقال النبي صلى الله عليه وسلم " **خذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ فضربوه به ضربة**" . (1)

ومن شريعة موسى وصهره عليهما السلام:

قال تعالى: **﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾** (القصص: **27 ـ 28**) .

(1) ذكره البغوي في شرح السنة: كتاب الحدود، باب: حد المريض، رقم (2591) ص 10/ 303.

قال ابن حزم: وبهذا يحتج من يبيح النكاح على إجارة أحد أجلين لم يوقت أحدهما بعينه، وهذا عندنا وعند خصومنا لا يجوز، لآن الإجارة المجهولة الأجل فاسدة، لأنها أكل مال بالباطل، والنكاح على شيء فاسدٍ فاسدٌ لأن كل ما لا يصح إلا بصحة، لا شك في أنه لا يصح لا سيما وتلك الإجارة للمنكح لاحظ فيها للمنكحة والصداق في ديننا إنما هو للمنكحة بنص قوله تعالى: ﴿ **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** ﴾ (النساء: 4)، ولاحظ فيها للأب والولي.

ومن عجائب الدنيا ما حدّثنا به أحمد بن محمد بن الجور حدثنا وهب بن مسرة قال: احتج مالك في جواز فعل الرجل بنكاح ابنته البكر بغير رضاها بقوله تعالى عن صهر موسى: ﴿ **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ** ﴾ (القصص: 27)، قال فأي عجب أعجب من احتجاجه بهذه الآية فيما لا يُوجد في الآية أصلاً ومن الممكن أن تكون رضيت فلم يُذكر، ثم يخالف الآية نفسها في أربعة مواضع:

أحدهما: نكاح أحد ابنتي بغير عينها .

والثاني: إنكاحه بإجارة.

والثالث: إجارة إلى أحد أجلين أيهما أوفى، فالنكاح ثابت.

والرابع: إنكاح امرأة بخدمة أبيها .

ثم بعد هذا كله: من له بأنها كانت بكر، ولعلها كانت ثيب، أليس في هذا الاحتجاج عبرة لمن اعتبر ولعلها بكر عانس وهو لا يرى إنكاح هذه إلا بإذنها ورضاها فكيف والاحتجاج بالآية لا يصح لما قدمنا من أن شرائع الأنبياء عليهم السلام لا تلزمنا على إطلاقها .

ومن شريعة يونس عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿ **إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ** ﴾ (الصافات: 140 ـ 141) .

قال ابن حزم فأحتج بهذا في الحكم بالقرعة وقد مضى الكلام في ذلك ولا خلاف بين أحد أنه لا يجوز أن يلقى أحد في البحر بالقرعة.

ومن شريعة مريم عليها السلام:

قول الله تعالى: ﴿ **إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً** ﴾ (مريم: 26)، وليس هذا من شروط الصوم عندنا .

ومن شرائع الله تعالى في بني إسرائيل:

قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾ (البقرة: 65)، ونحن نعتدي كثيراً فلا نمسخ ولله تعالى الحمد .

ومن شرائع أهل زمان زكريا عليه السلام قول أم مريم:

﴿ **إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرا** ﴾ (آل عمران:35) .

قال ابن حزم وهذا غير جائز عندنا أيضاً .

ومن شريعة يعقوب عليه السلام:

قول الله تعالى ﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (آل عمران: 93) .

قال ابن حزم: وهذا لا يحل عندنا، وليس لأحد أن يُحرّم على نفسه ما لم يُحرّم الله عز وجل، إلا أن طوائف من العلماء اختلفوا في تحريم الزوجة والأمة فقال به قوم ومنع منه آخرون وبالمنع منه نقول ولا يحل لأحد أن يُحرّم زوجة ولا غيرها ولا تكون بذلك حراماً، ولا طلاقاً ولا كفارة في ذلك، وهي حلال له كما كانت وكذلك سائر ماله.

ومن شرائع بني إسرائيل:

قوله تعالى: ﴿ **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ** ﴾ (البقرة: 58) .

قال ابن حزم وهذا لا يلزمنا .

ومن شريعة آدم عليه السلام:

قول الله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (المائدة: 27) .

قال ابن حزم: ولا خلاف في أنه لا يجوز عندنا التحاكم بالقرابين، ولا يحل عندنا الاستسلام للقتل ظلماً، بل المقتول دون نفسه شهيد .

ومن شريعة المكابيين:

في زمان أصحاب الكهف: ﴿ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً** ﴾ (الكهف: 21) .

قال ابن حزم: وهذا حرام في شريعتنا وقد قال عليه السلام: " إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة " (1).

قال أبو محمد فهذه شرائع: يلزم بإتباع شرائع الأنبياء عليهم السلام أن يقول بها وإلا فقد نقضوا أصلهم (2)

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساجد، باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد رقم (16 / 528) ص 2/ 184.

(2) انظر: ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، ص 160/2.

المبحث الرابع
هل كان النبي مُتعبداً قبل البعثة بشرع من قبله

من الثابت يقيناً من خلال معرفة سيرة النبي عليه السلام قبل البعثة، وقبل نزول الوحي عليه، أنه عليه السلام لم يكن على دين قومه، فلم يسجد لصنم ولم يشرب الخمر ولم يأكل من ذبائحهم التي يتقربون بها إلى أصنامهم ولم يلعب الميسر ولم يتعامل بالربا ويأت صاحبات الرايات الحمر. هذا أمر ثابت، حتى مشاركته لأفراح قومه صرفه الله عن مشاهدتها وحضور ما يحدث فيها.

روى الإمام الطبري في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته، فإني قد قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو بَصُرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب فقال: افعل فخرجت أريد ذلك، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير فقلت: ما هذا: قالوا فلان بن فلان تزوج بفلانة بنت فلان فجلست أنظر إليهم فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر، ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته ".[1]

---

(1) انظر: تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري، ص 2/ 279.

ويقول صفي الرحمن المباركفوري:

ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم فما وجد حسناً شارك فيه مثل (صوم عاشوراء)، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذُبح على النُصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها وحتى كان لا يصبر على سماع الحَلف باللات والعزى. [2]

هذه من الأمور الثابتة إلا أن العلماء اختلفوا هل كان النبي عليه السلام متعبداً بشريعة سابقة:

اختلف العلماء إلى ثلاثة مذاهب:

فمنهم كبعض المالكية وجمهور المتكلمين نفى التعبد، وبعضهم كالحنفية والحنابلة وابن الحاجب والقاضي البيضاوي أثبت تعبده، وبعضهم كالغزالي والآمدي والقاضي عبد الجبار وغيرهم من المحققين توقف في الحكم. إذ ليس هناك دليل قاطع على وقوعه وما يتخيل من الأدلة الدالة على الوقوع، فمع عدم دلالتها في ذاتها متعارضة كما سيظهر لي والمثبتون اختلفوا بالتالي في تعيين الشريعة.

فمنهم من قال: (الكلام للمثبتين)

إنها شريعة آدم لأنها أول الشرائع، وقيل بشريعة نوح لقوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً** ﴾ (الشورى: 13).

---

[2] انظر: الرحيق المختوم: المباركفوري، ص 80.

وقيل بشريعة إبراهيم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 96) وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (آل عمران: 95)، وقيل كان مُتعبِداً بشريعة موسى، وقيل بشريعة عيسى لأنه أقرب الأنبياء، ولأنه الناسخ لما قبله من الشرائع، وقيل بغير ذلك.

قال الشوكاني:

وأقرب هذه الأقوال أنه كان مُتعبِداً بشريعة إبراهيم عليه السلام، فقد كان صلى الله عليه وسلم كثير البحث عنها عاملاً بما بلغ إليه منها، كما تفيده الآيات القرآنية من أمره صلى الله عليه وسلم بعد البعثة بإتباع تلك الملة، فإن الأمر به يشعر بمزيد من خصوصية لها، فلو قدر أنه كان على شريعة قبل البعثة لم يكن إلا عليها، واختار الحنفية أن الأشبه هو ما بلغه من الشرائع.

أما النافون للتعبد بشرع سابق فيعتمدون على أدلة منها:

أدلة النفاة: استدل النافون لوقوع التعبد بشرع سابق قبل البعثة بدليلين عقليين:

1. لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم متعبداً بشريعة من الشرائع السالفة لنُقل عنه فعل ما تعبد به، واشتهر تلبسه بتلك الشريعة، ومخالطة أهلها كما هو الجاري من عادة كل متشرع بشريعة، ولكنه لم يُنقل عنه شيء من ذلك مع أنه عُرفت أحواله كلها قبل البعثة.

2. إنه لو كان متعبداً ببعض الشرائع السالفة لافتخر أهل تلك الشريعة بعد بعثته واشتهاره بنسبته إليهم وإلى شريعتهم.

ونُوقش هذان الدليلان بالمعارضة بأنه لو لم يكن على شريعة من الشرائع، ولا متعبداً بشيء منها لظهرت مخالفته لأهل تلك الشرائع فيما يأتون منها واشتهر خلافه عنه، ونقل إلينا لأن هذا مما تتوافر الدواعي على نقله أيضاً، ولكن لم يُنقل عنه شيء منه وليس أحد الأمرين أولى من الآخر وبناء عليه: فتظل الدعوى محتاجة إلى دليل سالم من المعارضة.

أدلة المثبتين: استدل المثبتون بدليلين أيضاً:

1 . **الدليل الأول:** إن كل رسول سابق كان يدعو الناس إلى إتباع شرعة النبي صلى الله عليه وسلم داخل في مثل هذا العموم التكليفي.

2 . تضافرت الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة يأتي بأفعال لا يرشد إليها مجرد العقل ولا يتأتى حسنها من غير شرع، فقد كان يُصلي ويحج ويعتمر ويطوف بالبيت ويعظمه ويذكي الحيوان ويأكل اللحم، ويُسخّر البهائم، ويتجنب الميتة ونحوها من أعمال شرعية تدل على أنه يقصد الطاعة والتزام التكاليف دون أن يكون للعقل فيها حكم.

ونوقش هذان الدليلان أيضاً بان الأول باطل إذ لم يثبت عموم الديانات السابقة، وإنما كانت خاصة فلم ينقل بطريق مقطوع به عن أحد من الرسل السابقين أنه دعا الناس كافة إلى إتباع دعوته، ولو فُرض أنه نقل إلينا فيحتمل أن يكون زمان نبينا عليه الصلاة والسلام زمان إندراس الشرائع المتقدمة وتعذر التكليف بها لعدم معرفتها بالتفصيل فبعث في ذلك الزمان.

الدليل الثاني: باطل أيضاً إذ لم يثبت التكليف بشيء مما ذُكر، بنقل موثوق به ولو سلّمنا أنه ثابت لا يدل قيامه بشيء من التكاليف على أنه مُتعبد به شرعاً، وأنه منفذ لالتزام تكليفي،

لأن كل ما يُمكن فهمه هو أنه يقصد القربة لا لأنه مُنفذّ للأمر، ويُحتمل أن تكون صلاته وحجته وعمرته وتعظيمه للبيت بطريق التبرك بما نقل إليه إجمالاً من فعل الأنبياء السابقين.

وأما أكل اللحم وذبح الحيوان وتسخيره البهائم، فإنما كان منه على أنه لا تحريم قبل ورود الشرع، وأما تركه أكل الميتة فكان بناء على عيافة نفسه لها طبعاً، كما كان يعاف لحم الضب، أما أنه فعل ذلك تعبداً بشرع فلا يثبت.

وحيث لم تسلم أدلة الفريقين من النقد فإني أؤيد رأي القائلين بالتوقف حتى يثبت دليل على أحد الأمرين.

قال الغزالي: " المختار أن ذلك جائز عقلاً، لكن الواقع منه غير معلوم بطريق قاطع، ورجم الظن فيما يتعلق به الآن تعبد عملي لا معنى له ".[1]

ويقول صاحب كتاب (الحاصل من المحصول في أصول الفقه) الإمام الأرموي:

أما قبل النبوة فنفاه قوم وأثبته قوم وتوقف فيه قوم.

و حجة النافين أنه لو كان كذلك لراجع أئمة تلك الشريعة مستفتياً عنهم ولو كان كذلك لاشتهر.

وحجة المثبتين أن دعوة الماضين كانت عامة، فوجب اندراجه فيها .

[1] انظر: أصول الفقه الإسلامي: د. وهبة الزحيلي ص 868-871.

جوابها: لا نسلّم عمومها . ولو سلّمناه، لكنها لعلها لم تبلغه بطريق يفيد العلم، أو الظن، وهو المراد من زمان الفترة. [1] [2]

حجة المثبِتين أن دعوة الماضين كانت عامة فوجب اندراجه فيها .

جوابها: لا نُسلّم عمومتها ، وإن سلمنا لكنه لم تبلغه بطريق يفيد العلم أو الظن وهو المراد من زمان الفترة .

وقد فصّل الإمام السرخسي هذه القضية بتفصيل أوسع فقال:

أما بخصوص هل كان الرسول مُتعبِداً بشريعة مَن قبله.

فالعلماء في ذلك على فريقين:

الفريق الأول: قالوا صفة الإطلاق في الشيء يقتضي التأبيد فيه إذا كان محتملاً للتأبيد، فالتوقيت يكون زيادة فيه ولا يجوز إثباته إلا بالدليل، ثم الرسول الذي كان الحكم شريعة له، لم يخرج من أن تكون معمولا بها ، وإن بعث بعد الرسول آخر ما لم يقم دليل النسخ فيه.

---

[1] انظر: الحاصل من المحصول: الأرموي، ص 632/2.

[2] الخلاف في المسألة مبني على أن شرائع الرسل السابقين هل كانت عامة لجميع المكلفين الكائنين في زمانهم وبعده، أو كانت شريعة على كل رسول خاصة بقومه، أو يحتمل ويحتمل، وينبغي أن يكون الخلاف جارياً في الفروع دون الأصول، فإن قواعد العقائد كان الناس في الجاهلية مكلفين بها إجماعاً، ولذلك انعقد الإجماع على أن موتاهم في النار يعذبون على كفرهم، ثم ما هي الثمرة العملية لهذا الخلاف، يقول المازري والأبياري في شرح البرهان والإمام وإمام الحرمين: هذه المسألة لا تظهر لها ثمرة في الأصول ولا الفروع البتة، بل تجري مجرى التواريخ المنقولة ولا ينبني عليهم حكم في الشريعة البتة، وكذلك قاله التبريزي، على ما في تنقيح الفصول 297.

ألا ترى أن علينا الإقرار بالرسل كلهم وإلى ذلك وقعت الإشارة في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (البقرة: 285) ، فكذلك ما ثبت من شريعة الرسول فما لم يظهر ناسخه فهو بمنزلة ما ليس فيه احتمال النسخ في كونه باقياً معمولاً به، يوضحه أن ما ثبت شريعة لرسول فقد ثبتت الحقيقة فيه وكونه مرضياً عند الله، وبعث الرسل لبيان ما هو مرضي عند الله مما عُلم كونه مرضياً قبل بعث رسول آخر، لا يخرج من أن يكون مرضياً ببعث رسول آخر وإذا بقي مرضياً كان معمولاً به كما كان قبل بعث الرسول الثاني، وبهذا تبين الفرق أن الأصل هو الموافقة في شرائع الرسل إلا إذا تبين تغير حكم بدليل النسخ.

أما الفريق الثاني: فقد استدلوا بقوله تعالى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً** ﴾ (المائدة: 48)، وبقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيل** ﴾ (الإسراء: 2)، فتخصص بني إسرائيل بكون التوراة هدى لهم يكون دليلاً على أنه لا يلزمنا العمل بما فيه إلا أن يقوم دليل يوجب العمل به في شريعتنا . ولأن بعث الرسل لبيان ما بالناس حاجة إلى بيانه، وإذا لم تجعل شريعة رسول منتهية ببعث رسول آخر لم يكن بالناس حاجة إلى البيان عند بعث الثاني لأن ذلك بيّن عندهم بالطريق الموجب للعلم، فمن هذا الوجه يتبين أن بعث رسول آخر دليل النسخ لشريعة كانت قبله، ولهذا جعلنا هذا النسخ فيما يحتمل النسخ دون ما لا يحتمل النسخ أصلاً كالتوحيد وأصل الدين.

ألا ترى أن الرسل عليهم السلام ما اختلفوا في شيء من ذلك أصلاً ولا وصفاً، ولا يجوز أن يكون بينهم فيه خلاف ولهذا انقطع القول ببقاء شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة لعلمنا بالدليل القاطع أنه لا نبي بعده حتى يكون ناسخاً لشريعته. يوضحه أن الأنبياء عليهم السلام قبل نبينا أكثرهم إنما بُعثوا إلى قوم مخصوصين، ورسولنا هو المبعوث إلى الناس كافة على ما قاله عليه السلام: " أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ قبلي بُعثت إلى الأحمر والأسود، وقد كان النبي يُبعث إلى قومه " . (1) فإذا ثبت أنه قد كان من المرسلين من يكون وجوب العمل بشريعته على أهل مكان دون مكان آخر، وإن كان ذلك مرضياً عند الله تعالى، علمنا أنه يجوز أن يكون وجوب العمل به على أهل زمان دون أهل زمان آخر، وإن كان ذلك منتهياً ببعث نبي آخر، وقد كان يجوز اجتماع نبيين في ذلك الوقت في مكانين على أن يدعو كل واحد منهما إلى شريعته، فعرفنا أنه يجوز مثل ذلك في زمانين وأن المبعوث أخراً يدعو إلى العمل بشريعته ويأمر الناس بإتباعه ولا يدعو إلى العمل بشريعة من قبله، فتعين الكلام في نبينا فإنه كان يدعو الناس إلى إتباعه كما قال تعالى: ﴿ **فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ (آل عمران: 31)، وإنما يأمر بالعمل بشريعته فلو بقيت شرائع من قبلنا معمولاً بها بعد مبعثه (صلى الله عليه وسلّم)، لدعا الناس إلى العمل بذلك ولكن يجب عليه أن يُعلم ذلك أصحابه ليتمكنوا من العمل به، ولو فعل ذلك لنُقل إلينا نقلاً مستفيضاً والمنقول إلينا منعه إياهم من ذلك. فإنه رُوي

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلاة، باب: رقم (56) حديث رقم (438) ص 155/1.

أنه عليه السلام لما رأى صحيفة في يد عمر سأله عنها قال: هي التوراة، فغضب حتى احمرت وجنتاه وقال: " امتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا إتباعي " (2) بهذا اللفظ يتبيّن أن الرسول المتقدم ببعث رسول آخر يكون كالواحد من أمته في لزوم إثبات شريعته لو كان حياً وعليه دل كتاب الله كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ** ﴾ (آل عمران: **81**)، فأخذ الميثاق عليهم بذلك من أبين الدلائل على أنهم بمنزلة أمةٍ من بُعث آخراً في وجوب إتباعه، وبهذا ظهر شرف نبينا عليه السلام فإنه لا نبي بعده فكان الكل ممن تقدم وممن تأخر في حكم المتبع له وهو بمنزلة القلب يطيعه الرأس ويتبعه الرِجل.

وهناك فريق ثالث:

استدلوا بهذا الكلام أيضاً، ولكن بطريق أن ما كان شريعةً لمن قبلنا يصير شريعةً لنبينا عليه الصلاة والسلام، ومن تقدم في العمل به يكون متبعاً له وفي حكم العامل بشريعته، من هذا الوجه فإن الله تعالى قال : ﴿ **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ **(الحج: 78)**، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (آل عمران: **95**)، وقال تعالى: ﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** ﴾ (النساء: **125**)، وما يكون منتهياً منسوخاً لا يكون متبَعاً، فبهذه النصوص تبين أنه متبع وأنه ملة إبراهيم فلم يبق طريق سوى أن نقول قد صار

(2) سبق تخريجه.

ذلك شريعة لنبينا عليه السلام ويجب على الناس العمل به بطريق أنه شريعة له حتى يقوم دليل نسخه في شريعته.

ألا ترى أنه قد اجتمع نبيان في وقت واحد وفي مكان واحد فيمن قبلنا على أن يكون أحدهما تبعاً للآخر نحو هارون مع موسى، ولوط مع إبراهيم كما قال تعالى: ﴿ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ** ﴾ (العنكبوت: 26) ، فكانت الشريعة لأحدهما والآخر نبي مرسل وهو مأمور بإتباعه والعمل بشريعته، ولا يجوز القول باجتماع نبيين في وقت واحد، ومكان واحد، على أن يكون لكل واحد منهما شريعة تخالف شريعة الآخر في وقت من الأوقات.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام: 90) ، ومعلوم أن الهدى في أصل الدين وأحكام الشرع جميعاً .

فإن قيل المراد به الأمر بالاقتداء بهم في أصل الدين فإنه مبني على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ** ﴾ (الأنعام: 76) ، إلى قوله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ** ﴾ (الأنعام: 83) ، إلى قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّه** ﴾ (الأنعام: 90) والدليل عليه أنه قد كان في المذكورين من لم يكن نبياً فإنه تعالى قال: ﴿ **وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ** ﴾ (الأنعام:87)، ومعلوم أن الأمر بالاقتداء في أحكام الشرع لا يكون في غير الأنبياء وإنما يكون ذلك في أصل الدين، ولأنه قد كان في شرائعهم الناسخ والمنسوخ فالأمر بالاقتداء بهم في الأحكام على الإطلاق يكون أمراً بالعمل بشيئين مختلفين متضادين وذلك غير جائز.

قلنا وفي الآية تنصيص على الاقتداء بهم وذلك يعم أصل الدين وأحكام الشرع، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ **الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (البقرة: 1ـ 2) ، أنه يدلنا على أن الهدى كل ما يجب الاتقاء فيه وما يكون المهتدي فيه متقياً وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ** ﴾ (المائدة: 44)، والحكم إنما يكون بالشرائع، ولما سُئل مجاهد عن سجدة (ص) قال سجدها داود وهو ممن أمر نبيكم أن نقتدي به، وتلا قوله تعالى: ﴿ **فبهداهم اقتده** ﴾ ، بهذا يتبين أن هذا أمر مبتدأ غير مبني على ما سبق بعمومه يتناول أصل الدين والشرائع جميعاً .

وقوله ناسخ ومنسوخ: قلنا في شريعتنا أيضاً ناسخ ومنسوخ، ثم لم يمنع ذلك إطلاق القول بوجوب الاقتداء علينا برسول الله صلى الله عليه وسلم في شريعته وقوله قد كان منهم من ليس بنبي، لا، كذلك فقد أَلحق به من البيان ما يعلم به أن المراد الأنبياء وهو قوله تعالى: ﴿ **وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ** ﴾ (الأنعام: 87 ـ 89)، مع أن الأمر بالاقتداء يُعلم أنه لا يتناول إلا من يعلم أنه مرضي الطرق مقتدى به من نبي أو ولي، والأولياء على طريق الأنبياء عليهم السلام في العمل بشرائعهم. فبهذا يتبين أن المراد هو الأمر بالاقتداء بالأنبياء عليهم السلام ومعلوم أنه ما أَمر بالاقتداء بهم في دعاء الناس إلى شريعتهم، وإنما أَمر بذلك على أن يدعوا الناس إلى شريعته، فعرفنا بهذا أن ذلك كله صار شريعة له بمنزلة الملك

ينتقل من المورث إلى الوارث فيكون ذلك الملك بعينه مضافاً إلى الوارث بعد ما كان مضافاً إلى المورث في حياته. وإلى ذلك وقعت الإشارة في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ (فاطر: 32)، فأما قوله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً** ﴾ (المائدة: 48)، قد عرفنا يقيناً أنه ليس المراد به المخالفة في المنهاج في الكل، بل ذلك مرادٌ في البعض وهو ما قام الدليل على انتساخه، وقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيل** ﴾ (الإسراء: 2)، لا يدل على أنه ليس بهدى لغيرهم، كقوله تعالى: ﴿ **هُدىً لِلْمُتَّقِينَ** ﴾، والقرآن هدى للناس أجمعين.

وأيد هذا دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة وطلب حكم الرجم منه للعمل به وقوله: " **إنا أحق من أحيا سُنة أماتوها** "، فإن إحياء سُنة أُميتت إنما يكون بالعمل بها، فعرفنا أن التوراة هدى لبني إسرائيل ولغيرهم وأيد جميع ما ذُكر قوله تعالى: ﴿ **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ** ﴾ (المائدة: 48)، ولا معنى لذلك سوى أن ما فيه يصير شريعة لنبينا بما أُنزل عليه من الكتاب، إلا ما ثبت نسخه وهذا هو القول الصحيح عندنا إلا أنه ظهر من أهل الكتاب الحسد وإظهار العداوة للمسلمين، فلا يُعتمد قولهم فيما يزعمون أنه من شريعتهم، إن ذلك قد انتقل إليهم بالتواتر ولا تُقبل شهادتهم في ذلك لثبوت كفرهم وضلالهم، فلم يتبق لثبوت ذلك سوى نزول القرآن به أو بيان الرسول له، فما وجد فيه هذا الطريق فعلينا فيه الإتباع والعمل به حتى يقوم دليل النسخ، وأيد ما ذكرنا قول الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (المائدة: 44)، ومعلوم أنهم ما كانوا يمتنعون عن العمل

بأحكام التوراة و إنما كانوا يمتنعون عن العمل به على طريق أنه شريعة رسولنا، فإنهم كانوا لا يقرون برسالته وقد سماهم الله كافرين ظالمين ممتنعين من الحكم بما أنزل الله، وكذلك قال تعالى: ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (المائدة: 47) ،وإنما سماهم فاسقين لتركهم العمل بما في الإنجيل على أنه شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، فبهذا يتبين أن ذلك كله قد صار شريعةً لنبينا عليه الصلاة والسلام، وأنه يجب إتباعه والعمل به على أنه شريعة نبينا وفي قوله تعالى: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ** ﴾ (المائدة: 43)، تنصيص على أنه معمول به، وقوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ (الشورى: 13)، الدين اسم لكل ما يدان الله به فتدخل الأحكام في ذلك ويظهر أن ذلك كله قد صار شريعةً لنبينا فيجب إتباعه والعمل به إلا ما قام الدليل على نسخه. [1]

بقيت في هذا الموضوع نقطة وهي: هل كان النبي عليه السلام بعد البعثة وأمته متعبدين بشرع سابق. فقد فصلها الزحيلي تفصيلاً شافياً حيث قال:

لا نزاع في أمر العقائد فإن شريعتنا ليست ناسخة لجميع الشرائع بالكلية، إذ لم يُنسخ وجوب الإيمان، وتحريم الزنى والسرقة والقتل والكفر، أما ما عدا العقائد فيحتاج إلى تمحيص.

---

[1] انظر: أصول السرخسي: محمد بن أبي سهل، ص 2/ 99-105.

محل الخلاف وهو أنواع:

إن الأحكام التي لم يرد لها ذكر في شريعتنا لا في الكتاب ولا في السُنة لا تكون شرعاً لنا بلا خلاف، وكذلك الأحكام التي نسختها شريعتنا لا خلاف في أنها ليست شرعاً لنا، مثل تحريم أكل كل ذي ظفر كالإبل والإوز والبط وتحريم الشحوم التي في بطن الحيوان محيطة بالكرش، أو التي لا تختلط بعظم، وتحريم الغنائم، ومثل قتل النفس في سبيل التوبة وقطع الثوب لتطهيره من النجاسة، فهذه الأحكام منسوخة في حقنا .

وأما الأحكام التي أقرتها شريعتنا فلا نزاع في أننا متعبدون بها لأنها من شريعتنا ولورود التشريع الخاص فيه بنا مثل الصيام والأضحية.

بقي النوع الأخير الذي هو محل الخلاف بين العلماء وهو الأحكام التي لم تُقرر في شريعتنا ، إذا عُلم ثبوتها بطريق صحيح ولم يرد عليها ناسخ كالتي قصها الله سبحانه علينا في قرآنه، أو وردت على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن غير إنكار ولا إقرار لها مثل آية القصاص في شريعة اليهود ومثل آية قسمة الماء بين النبي صالح وبين قومه.

اختلف العلماء في هذا النوع الأخير على ثلاثة أقوال:

القول الأول: لجمهور الحنفية والمالكية وبعض الشافعية وأحمد في رواية عنه وهي المرجحة عند أكثر أصحابه، وهو أن ما صح من شرع من قبلنا فهو شرع لنا عن طريق الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا من جهة كتبهم المبدلة، فيجب علينا العمل به ما لم يرد في شرعنا خلافه ولم يظهر إنكار له.

القول الثاني: مذهب الأشاعرة والمعتزلة والشيعة، والراجح عند الشافعية وأحمد في رواية أخرى عنه واختاره الغزالي والرازي وابن حزم الظاهري وكثيرٌ من العلماء: وهو أن شرع من قبلنا ليس شرعٌ لنا .

القول الثالث: حكاه ابن القشيري وابن برهان: وهو التوقف حتى يتبين الدليل الصحيح، قال الآمدي: وهو بعيد فلا داعي للتعرض له.

ويلاحظ أن الخلاف في هذه الأقوال قائم بين من لم ينفِ التعبد قبل النبوة، أما من نفاه فقد نفاه بعده بطريق الأولى.

الأدلة:

أدلة المثبتين: استدل المثبتون وهم الفريق الأول بأدلة أربعة:

1 . أن شرع من قبلنا من الشرائع التي أنزلها الله ولم يُوجد ما يدل على نسخه فنكون مطالبين به لقوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام: 90)، وقد ثبت عن ابن عباس أنه سجد في سورة (ص) عند قراءة قوله تعالى: ﴿ **وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ** ﴾ (ص: 24)، وقرأ هذه الآية: ﴿ **أُولَئِكَ عَلَى هُدى** ﴾ (لقمان: 5)، لقوله سبحانه: ﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** ﴾ (النحل: 123)، وهاتان الآيتان من أوضح وأصرح الأدلة في الدلالة على هذا المذهب لأن **الأولى** تأمر بإتباع الهدى وهو اسم للإيمان والشرائع جميعاً، **والثانية** تأمر بإتباع ملة إبراهيم، والملة هي الشريعة والأمر للوجوب. وقال الله عز وجل: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا**

وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى: 13)، فدل على وجوب إتباع شريعة نوح لأن كلمة (الدين) اسم لما يُدان الله تعالى به من الإيمان والشرائع، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ** ﴾ (المائدة: 44) .

2. استدلوا بقوله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ** ﴾ (المائدة: 45)، فإن العلماء احتجوا بها على وجوب القصاص في شرعنا لو لم يكن النبي عليه السلام متعبداً بشرع من قبله لما صح الاستدلال بكون القصاص واجباً في بني إسرائيل على كونه واجباً في شرعه.

3. استدلوا على وجوب قضاء الصلاة بأن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: " من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك وقرأ قوله تعالى: ﴿ **وأقم الصلاة لذكري** ﴾ "[1]، مع أن هذه الآية خطاب لسيدنا موسى عليه السلام، فلو لم يكن متعبداً بشرع قبله لما كان لتلاوة الآية عندئذ فائدة وكذلك فإنه رجع إلى التوراة في رجم اليهودي.

4. استدلوا أيضاً بما يُثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يُحب موافقة أهل الكتاب فيما لم ينزل عليه وحي، ولو لم يكن شرعهم حجة لم يكن لمحبته موافقتهم فائدة.

ولقد نوقشت هذه الأدلة بنقاش طويل مجمله:

أنها ليست قاطعة الدلالة على إثبات المطلوب، إذ أن المقصود بالآيات الأولى هو الهُدى المشترك بين جميع الديانات، وهي الأمور التي لم تختلف باختلاف الشرائع، وهي

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلاة، باب: من نسي صلاة ..، رقم (597) ص 194/1.

أصول الديانات والكليات الخمس أي حفظ النفوس والعقول والأنساب والأعراض والأموال، والمراد من قوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ** ﴾ هو أصل التوحيد وهو المراد أيضاً من الأمر بإتباع ملة إبراهيم بدليل نهاية الآية: ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ فالشرك مقابل للتوحيد .

وقوله تعالى: ﴿ **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ** ﴾ صيغة إخبار لا صيغة أمر . فدل على أن الاستدلال بهذه الآية هو فيما لا خلاف فيه وهو بالنسبة للعقائد والكليات الخمس الضرورية لا بالنسبة لفروع الشرائع مما قد يرد عليه النسخ لاختلاف الزمان والمقتضيات.

وأما إيجاب القصاص فهو ثابت في شرعنا، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى** ﴾ (البقرة: **178**)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** ﴾ (البقرة: 194) وقضاء الصلاة ثابت بما أوحي إلى النبي عليه السلام إلا أنه نبه أمته على مشابهتها في الحكم لأمة موسى عليه السلام، وأما رجوعه عليه السلام إلى التوراة فإنما كان لإلزام اليهود بإنكارهم مشروعية الرجم، وإظهار صدقه فيما كان قد أخبر به أن الرجم مذكور في التوراة، لا لأن يستفيد حكم الرجم منها، ويدل عليه أنه لم يرجع إليها فيما عداه.

أدلة النُفاة:

استدل النُفاة بأدلة أربعة أيضاً:

1 . أن النبي عليه الصلاة والسلام لما بعث معاذاً إلى اليمن قاضياً، وسأله عمّا يحكم به أجابه بالكتاب والسُنة ثم بالاجتهاد فأقره عليها، ولم يرشده إلى الأخذ بشرع من قبلنا، فلو كان متعبداً لذكره معاذ أو لنبهه النبي عليه الصلاة والسلام إلى خطئه إذا تركه.

2 . قال تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾ (المائدة: 48) ، فهذا يدل على أنه جعل لكل فريق شريعة فلا يطالب فريق بشريعة الآخر حتى بالغت المعتزلة فقالت باستحالة ذلك عقلاً.

3 . لو كان النبي عليه الصلاة والسلام متعبِداً بشرع من قبله، وكذلك أمته لوجب عليه تعلمه ولوجب على مجتهدي الصحابة البحث عنه والسؤال عما فيه عند حدوث الوقائع المختلف فيها فيما بينهم.

4 . إن الشرائع السابقة مخصوصة بأقوام رسل أصحابها، وأما الشريعة الإسلامية فشريعة عامة وقد انعقد الإجماع على أنها ناسخة لكل الشرائع المتقدمة، قال عليه الصلاة والسلام: " أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ قبلي، وذكر منها وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصةً وبُعثت

إلى الناس عامةً " [1] فلو كان النبي عليه الصلاة والسلام متعبداً بشرعٍ سابق لكان مقرِراً له لا ناسخاً له.

لكن هذه الأدلة نوقشت أيضاً:

بأن شرع من قبلنا لم يُذكر في حديث معاذ لأن القرآن يشمله، أو لأنه محصور في مسائل قليلة وأن النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته من بعده لم يرجعوا إلى كتب السابقين إما لاندثارها أو لتحريفها وتبديلها وأن رجوع المجتهدين يكون في المسائل الاجتهادية التي لم تُذكر في القرآن وهذا لا نزاع فيه لعدم تواتره.

وأما الإجماع على أن شريعتنا ناسخة للشرائع فهو ليس مطلقاً لكل ما جاءت به الشريعة، وإنما هي ناسخة لما خالفها بدليل بقاء مشروعية القصاص وحد الزنا والسرقة ونحوها.

هذا وقد رجّح كثيرٌ من الأصوليين المحدثين مذهب القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا، بشرط أن تثبت صحته بنقل مسلمين عدول ضابطين أو بأن يرد حكمه في القرآن أو بأن يثبت في السُنة الصحيحة لأنه تشريع سماوي، ولأن ذكره في القرآن بدون إنكار أو نسخ يدل على تشريعه وإقراره ضمنياً بالنسبة لنا، ولأن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وبناءً عليه استدل الفقهاء على جواز قسمة منافع المال المشترك بطريق المهايأة

---

[1] سبق تخريجه.

بقوله تعالى في قصة ناقة صالح عليه السلام: ﴿ **وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ** ﴾ (القمر: 28)، وهو المهايأة بعينها وهي جائزة في المذاهب الأربعة، واستدل الحنفية على جواز قتل المسلم بالذمي والرجل بالمرأة بقوله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ** ﴾ (المائدة: 45)، أي في التوراة واحتج بالآية أيضاً المالكية والحنابلة على قتل الذكر بالأنثى واستدل المالكية والشافعية والحنابلة على جواز الجعالة بقوله تعالى في قصة يوسف: ﴿ **وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** ﴾ (يوسف:72)، واحتج غير الشافعية بجواز الكفالة بالنفس بقوله تعالى: ﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ** ﴾ (يوسف: 66)، والشافعية استأنسوا بهذه الآية واحتجوا بعموم حديث: " الزعيم غارم " [1] وبالقياس على كفالة الدين.

واحتج الحنابلة على جواز جعل المنفعة مهراً بآية: ﴿ **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ** ﴾ (القصص: 27).

واستأنس الشافعية بتلك الآية واستدلوا على الجواز بالقياس على الإجارة، واستدل الإمام مالك على أفضلية الكباش في الضحايا ثم البقر ثم الإبل بما فعله إبراهيم عليه السلام من فدائه ولده بكبش، واستدل مالك وأبو حنيفة ومحمد خلافاً للشافعي وأحمد وأبي

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سُننه: كتاب الصدقات، باب: الكفالة، رقم (2405) ص 804/2.

يوسف وذكر بقصة إبراهيم على لزوم نذر ذبح الولد ووجوب الهدي وهو جزور عند مالك وشاة عند أبي حنيفة.

ولكن لدى التحقيق الذي سبق: يتبين أنه ليس شرع من قبلنا دليلاً مستقلاً من أدلة التشريع وإنما هو مردود إلى الكتاب أو السنة، لأنه لا يعمل به كما عرفنا إلا إذا قصه الله تعالى أو رسوله عليه الصلاة والسلام من غير إنكار ولم يرد في شرعنا ما يدل على نسخه فالحق أن شرع من قبلنا ليس شرعاً مستقلاً لنا. [1]

ونختتم هذا الفصل بما قال الإمام الأرموي:

وأما بعد النبوة فأكثر الأئمة على أنه عليه السلام لم يكن متعبداً بشريعة من قبله.

وقال قوم من الفقهاء أنه كان مأموراً باقتباس الأحكام من الشرائع السابقة.

ويدل على بطلانه وجهان:

أحدهما: أنه لو كان كذلك لراجع كتبهم في الأحكام، ولاستفتى علماءهم، ولم يفعل ذلك بل انتظروا الوحي. فدل على أنه غير مأمور بذلك.

فإن قيل: لعله لم يكن متعبداً باقتفاء اثر الأولين في تلك الأحكام فقط، أو كان عالماً بخلو كتبهم عن تلك الأحكام، أو أن تلك الأحكام إن كانت متواترة فلا حاجة إلى مطالعة تلك الكتب، وإن لم تكن فلا فائدة لكون تلك الكتب مروية برواية الآحاد من الكفار سلمناه

[1] انظر: أصول الفقه الإسلامي: وهبة الزحيلي، ص 2/871-878.

لكنه راجع التوراة في آية الرجم. فجواب الأول: أنه لم يراجع في شيء من الأحكام فلا يكون مأموراً بشيء منها .

والجواب عن الثاني: أن العلم بخلو تلك الكتب عن هذه الأحكام بعد التفتيش الكثير ولم يفعل ذلك.

والجواب عن الثالث: أنها متواترة المتن فتحتاج إلى المطالعة لاستخراج وجوه الدلالة كالقرآن.

قوله إنه عليه السلام راجع التوراة في الرجم.

قلنا: إنما راجع احتجاجاً بها على اليهود لا لتبيين أنها شرعه.

وكيف يراجعها لإثبات شرعه بها وهي منسوخة ومحرفة على رأيه.

والثاني: أنه لو كان عليه السلام متعبداً بشرع من سبقه لوجب على علماء الشريعة مراجعة كتب الأولين في الوقائع التي لا يجدون أحكامها في شرعنا تأسياً به عليه السلام.

وحيث لم يفعلوا ذلك في عصر من العصور، علمنا عدم تعبده عليه السلام بها .

احتجوا بآيات:

أولها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ** ﴾ (المائدة: 44) .

ثانيهما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام: 90) .

و ثالثهما قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ (النساء: 163) .

و رابعهما قوله سبحانه و تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** ﴾ (النساء: 120) .

و خامسهما قوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً** ﴾ (الشورى: 13) .

جواب الأولى: أنا إن عممنا لفظ النبيين فقد حكم كل الأنبياء ببعض ما في التوراة، وهي الأحكام الأصولية.

وإن خصصناها: فقد حكم بكلها أنبياء بني إسرائيل.

وجواب الثانية: أنه مأمور بهدي مضاف إلى الكل وهو الأحكام الأصولية التي لا تقبل النسخ دون الفرعية القابلة له.

وجواب الثالثة: أن التشبيه في الوحي لا في الموحى به.

وجواب الرابعة: أن المراد من الملة: الأصول، لاندراس شريعة إبراهيم بالكلية.

وجواب الخامسة: أنه سبحانه وصى محمداً عليه السلام وآله أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه كما وصى نوحاً بذلك،

وذلك لا يدل على اتفاق دينهما . [1]

---

[1] انظر: الحاصل من المحصول في أصول الفقه: الأرموي، ص 633-636.

المبحث الخامس
النسخ وعلاقته بشرع من قبلنا

النسخ في اللغة:

كما يقول ابن منظور: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه.

وأيضاً هو تبديل الشيء من الشيء وهو غيره.

وهو أيضاً نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو.

والشيء ينسخ الشيء نسخاً أي يزيله ويكون مكانه.

والنسخ أن تزايل أمراً كان من قبل يعمل به ثم تنسخه بحادث غيره.

والعرب تقول نسخت الشمس الظل، وانتسخته أي أزالته والمعنى أذهبت الظل وحلت محله.[1]

وعند الأصوليين: تعددت تعريفات النسخ عند الأصوليين.

فمنهم من يقول هو: رفع الشارع حكماً شرعياً بدليل شرعي متراخٍ عنه.

ومنهم من عرّفه بأنه: رفع حكم خطاب سابق بخطاب لاحق متراخ عنه بحيث لولاه لدام حكم الأول.

وعرّفه بعضهم بأنه: بيان انتهاء مدة الحكم الأول.

---

(1) انظر: لسان العرب: ابن منظور، ص 6/ 87.

(2) انظر: الحاصل من المحصول: الأرموي، ص 638/2.

و عرّفه الأرموي بأنه: طريق شرعي يبين انتهاء حكم شرعي، ثبت بطريق شرعي، مع تراخيه عنه. (2)

لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة ".(3) فإن الأمر بالزيارة ينسخ الحكم السابق الذي يمنع الزيارة، وهذا الأمر يفيد الإباحة لوروده بعد النهي.

وقد وقع النسخ في القرآن الكريم، والحكمة منه هو ملائمة النص الشرعي للمصالح المتجددة والمتغيرة، وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد وقوع النسخ فيه، قال تعالى: ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (البقرة : 106) .

وهناك كثير من الأمثلة للنسخ: نذكر منها قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ** ﴾ (النساء: **15**) ، وقد نسخت هذه الآية بآية أخرى قال تعالى: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾ (النور: 2)، وتفيد الآية الأولى إمساك من يثبت عليهن الزنا في البيوت حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلاً، وقد نُسخ هذا الحكم بالآية الثانية التي تفيد إقامة الحد على الزانية بمائة جلدة.

---

(2) أخرجه ابن ماجه في سُننه: كتاب الجنائز، باب: ما جاء في زيارة القبور، رقم (1571) ص 500/1.

والأحكام التي تقبل النسخ هي الأحكام التكليفية دون الأحكام الاعتقادية الثابتة، لأن هذه الأحكام لا تقبل التغيير، فالدعوة إلى الإيمان والفضائل والبعد عن الكفر والرذائل والظلم من الأصول الثابتة. [1]

إن النسخ في القرآن الكريم لا يطرأ على القصص ولا على الأمور القطعية العقلية مثل أن صانع العالم موجود، ولا على الأمور الحسية مثل ضوء النهار أو ظلمة الليل ولا على الأدعية ولا على الأحكام التي تكون واجبة نظراً الى ذاتها مثل آمنوا ولا تشركوا، ولا على الأحكام المؤقتة قبل وقتها المعين مثل: ﴿ **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ (البقرة: **109**)، ولا على الأحكام المؤبدة مثل: ﴿ **وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً** ﴾ (النور: 4)، بل النسخ يطرأ على الأحكام التي تكون عملية محتملة للوجود والعدم، غير مؤبدة وغير مؤقتة، وتُسمى الأحكام المطلقة، ويشترط فيها أن لا يكون الوقت والمكلف والوجه متحدة بل لا بد من الاختلاف في الكل أو البعض من هذه الأمور الثلاثة.

وليس معنى النسخ المصطلح أن الله أمر أو نهى أولاً ما كان يعلم عاقبته ثم بدا له رأي فنسخ الحكم الأول ليلزم الجهل أوامره أو نهيه، ثم نسخ مع الاتحاد في الأمور المسطورة ليلزم الشفاعة عقلاً، وإن قلنا إنه كان عالماً بالعاقبة، فإن هذا النسخ لا يجوز عندنا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . بل معناه أن الله كان يعلم أن هذا الحكم يكون باقياً على المكلفين الى الوقت

---

[1] انظر: المدخل للتشريع الإسلامي: د. محمد النبهان، ص 87_88

الفلاني ثم يُنسخ. فلما جاء الوقت أرسل حكماً آخر ظهر منه الزيادة أو النقصان أو الرفع مطلقاً. ففي الحقيقة هذا بيان انتهاء الحكم الأول، لكن لما لم يكن الوقت مذكوراً في الحكم الأول فعند ورود الثاني يتخيل لقصور علمنا في الظاهر أنه تغير.

ففي نسخ الأحكام حكم ومصالح، نظراً إلى حال المكلفين والزمان والمكان.

ويجوز النسخ في غير المذكورات من الأحكام المطلقة الصالحة للنسخ، فلتعرف أن بعض أحكام التوراة والإنجيل من الأحكام التي هي من جنس الصالحة للنسخ، منسوخة في الشريعة المحمدية.

ولا نقول إن كل حكم من أحكامها منسوخ، كيف وإن بعض أحكام التوراة لم تنسخ يقيناً مثل حرمة اليمين الكاذبة والقتل والزنا واللواط والسرقة وشهادة الزور والخيانة في مال الجار وعرضه ووجوب إكرام الوالدين وحرمة نكاح الآباء والأبناء والأمهات والبنات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وجمع الأختين وغيرها من الأحكام الكثيرة، وكذا بعض أحكام الإنجيل لم تنسخ يقيناً.

والدارس لأمر النسخ يجد أنه ليس بمختص بشريعتنا، بل وجد في الشرائع السابقة أيضاً بكثرة بكلا قسميه:

- أي النسخ الذي يكون في شريعة نبي لاحق لحكم كان في شريعة نبي سابق.
- والنسخ الذي يكون في شريعة نبي لحُكم آخر في شريعة هذا النبي.

فنجد أن الله سبحانه أقر أحكاماً على قوم سيدنا نوح، مثل إباحة الأكل من كل ما خلق الله سبحانه وتعالى ، ثم جاءت شريعة موسى عليه السلام فحرّم الله عليهم بعض المطعومات والمشروبات.

وفي شريعة يعقوب كان مباحاً الجمع بين الأختين، ثم جاءت الأحكام فيما بعد فحرمت الجمع بين الأختين. والباحث لا يعدم الوسيلة في الوقوف على عشرات الأمثلة بين ما أحل الله ثم حرّم، أو حرّم ثم أباح بين الشرائع المختلفة.

أما في ظل الشريعة الواحدة فالأمثلة على ذلك كثيرة وواضحة، مثل أمر الله لإبراهيم بذبح ابنه ثم نسخه قبل وقوعه بالفداء. وفي شريعة محمد عليه السلام حكم الزانية الحبس ثم نُسخ بالجلد، وغيره كثير.

وقد عقد علماء الأصول في كتبهم أبواباً واسعة لموضوع النسخ نجمل الحديث فيه إجمالاً:

الأحكام التي تقبل النسخ:

ما يقبل النسخ من الأحكام الشرعية هو الحكم المطلق الذي يحتمل التوقيت ولم يجب بقاؤه بدليل يوجب البقاء، كالشراء يثبت به المِلك دون البقاء للملك الثابت به بل بناؤه بدليل آخر مبق أو بعد الدليل المزيل، فخرج بذلك الأحكام المقيدة بالتأبيد أو بالتوقيت، والأحكام التي لا تقبل ولا تحتمل التأقيت كالإيمان بالله وصفاته والأحكام التي لها دليل يوجب بقائها كالتشريعات التي مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهي قائمة، فلا نسخ لأي حكم كان

موجوداً أيام رسول الله ومات عنه الرسول وهو موجود لا ينسخ، وانعدام الأحكام التي لم يلحقها نسخ يكون بانعدام أسبابها أي الدليل الدال على بقاء هذه الأحكام [1].

أما عن شروط النسخ فهي:

1. كون الناسخ والمنسوخ في حُكمين شرعيين.
2. كون الناسخ متأخراً عن المنسوخ في نفس الشريعة أو غيرها.
3. أن يكون الحكم قابلاً للنسخ فلا يكون من الأحكام الأساسية (الأصول) كأركان الإيمان أو الأخلاقيات.
4. أن يكون الناسخ مثل المنسوخ في القوة أو أقوى منه.
5. ألا يكون المنسوخ مقيداً بوقت.

أما عن أنواع النسخ فهي:

1. **النسخ الصريح:** وهو أن ينص الشارع صراحةً على نسخ حكم سابق بحكم جديد، مثل إباحة ادخار لحوم الأضاحي بعد المنع.
2. **النسخ الضمني:** وهو أن يُشرّع الله حكماً معارضاً به حكمه السابق ولا يمكن التوفيق بينهما إلا بإلغاء أحدهما ويكون غالباً السابق. مثل حكم الوصية للوالدين والأقربين وحكم توزيع التركة بعد الموت.

---

[1] انظر: استنباط الأحكام من النصوص: أحمد محمد الحصري، ص423-424.

3. **النسخ الكلي**: وهو أن يُبطل الشارع حكماً شرعه من قبل إبطالاً كلياً بالنسبة إلى كل فرد من أفراد المكلفين. مثل عدة المتوفى عنها زوجها كانت حولاً ثم ارتفع الحكم بأربعة أشهر وعشرة أيام.

4. **النسخ الجزئي**: أن يُشرّع الشارع حكماً عاماً شاملاً كل فرد من أفراد المكلفين، ثم يلُغي هذا الحكم بالنسبة إلى بعض الأفراد. كعدة المتوفى زوجها حاملاً أو غير حامل. ثم آية عدة الحامل أن تضع حملها.

كيف نعرف الناسخ من المنسوخ:

1- أن يقضي ذلك اللفظ بأن يكون فيه ما يدل على تقدم أحدهما وتأخر الآخر، التقدم هنا تقدم نزول.

2- من خلال قول النبي الصحيح. مثل زيارة القبور.

3- أن يُعرف ذلك من فعل النبي عليه السلام، مثل رجم ماعز وعدم جلده.

4- إجماع الصحابة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ، كنسخ يوم عاشوراء بصوم رمضان.

5- نقل الصحابي لتقدم أحد الحكمين وتأخر الآخر.

6- كون أحد الحكمين شرعياً والآخر موافقاً للعادة. [1]

[1] انظر: المصدر لسابق: ص490 – 495.

بعض ما كان في شرائع السابقين من نسخ:

1. الطلاق:

يجوز في شريعة اليهود حسب زعم العهد القديم أن يُطلق الرجل امرأته لأي سبب كان، وأن يتزوجها رجل آخر بعد خروجها من بيت زوجها الأول مباشرة: " إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء و كتب لها كتاب طلاق و دفعه إلى يدها و أطلقها من بيته و متى خرجت من بيته ذهبت و صارت لرجل آخر ". [2]

بينما لا يجوز في العهد الجديد الطلاق إلا بعلة الزنا وكذلك لا يجوز لرجل أن يتزوجها بل يُعتبر ذلك زنا: " وقيل من طلّق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلّق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني ". [1]

2. المطعومات:

كانت حيوانات كثيرة في شريعة العهد القديم محرمة كالإبل والأوز والبط، ثم جاءت شريعة عيسى عليه السلام (العهد الجديد) فأباحت لحم كثير مما كان محرماً على بني إسرائيل.[2]

(2) العهد القديم: سفر التثنية 24/1-2، ص 216.

(1) العهد الجديد: إنجيل متى 5/31-32، ص 9.

(2) المصدر السابق: بولس1/15.

3. السبت:

كان تعظيم السبت حكماً أبدياً في شريعة العهد القديم، وما كان مسموحاً لأحد أن يعمل فيه عمل، وكان من يعمل فيه عمل ولم يحافظ على حرمته يقتل، وقد ذكر ذلك في مواضع كثيرة من العهد القديم. " اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك ". [3] ويقول في موضع آخر: " سبوتي تحفظونها لأنه علامة بيني وبينكم في أجيالكم لتعلموا أني أنا الرب الذي يقدسكم فتحفظون السبت لأنه مقدس لكم من دنسه يقتل قتلاً. إن كل من صنع فيه عملاً تقطع تلك النفس من بين شعبها "[4]

فلما ظهرت دعوة المسيح لم يعد يُعظم السبت، لهذا كان اليهود المعاصرون للسيد المسيح يؤذونه ويترصدون لقتله ويتربصون به بحجة أنه لا يُعظم السبت: " فأتوا إلى الفريسيين بالذي كان قبلاً أعمى، وكان سبت حين صنع يسوع الطين وفتح عينيه، فسأله الفريسيون أيضاً كيف أبصر فقال لهم وضع طيناً على عينيّ وإغتسلت فأنا أبصر، فقال قوم من الفريسيين هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت "[5].

---

[3] العهد القديم: سفر الخروج 20/ 8 . 11، ص 119.

[4] المصدر السابق: 31/ 12. 15، ص 139.

[5] العهد الجديد: إنجيل يوحنا، 13/9. 16، ص164.

1- الختان:

كان حكم الختان في شريعة إبراهيم عليه السلام أبدياً: "هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر، فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم "[1]

وقد بقي هذا الحكم في أولاد إسماعيل وأولاد إسحاق عليهما السلام وختن عيسى نفسه كما في العهد الجديد: " ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سُمي يسوع من الملاك قبل أن حبل به في البطن ". [2]

وهناك كثير من الأمور تم فيها النسخ بين الشرائع.

أما بين شريعتنا والشرائع السابقة فإن آيات كثيرة من القرآن الكريم قد تناولت هذا الموضوع، ورفعت أحكاماً كانت على الأمم السابقة على أمة الإسلام. وهذا من رحمة الله بالناس ولكون دين الإسلام هو الدين الخاتم، ولما لشريعة الإسلام من الخصائص والمميزات ما جعلتها ناسخة لغيرها.

ومن هذه الخصائص:

1- أنه يرجع في أسسه العامة إلى وحي الله تعالى.

2- أن الجزاء فيه دنيوي وأخروي، والأخروي أعظم من الدنيوي.

(1) العهد القديم: سفر التكوين، 17/ 10. 12، ص24.

(2) العهد الجديد: إنجيل لوقا، 21/2 ص92.

3- أن تنفيذ هذا التشريع لا يرتكز على قوة السلطة التنفيذية فقط، بل يعتمد على الوازع الديني.

4- الإسلام يهدف إلى قيام مجتمع مثالي.

5- النزعة في التشريع الإسلامي نزعة جماعية دون إلغاء قيمة الفرد.

6- قبوله للمستجدات والطوارئ من الأحكام. [3]

ونختم بما قاله عبد الكريم زيدان:

النسخ وقع فعلاً في الشريعة كما قلنا، والحكمة منه مراعاة مصالح العباد ذلك أن المقصد الأصلي من تشريع الأحكام تحقيق مصالح العباد، فإذا رُؤي أن المصلحة تقتضي في زمان ما تبديل هذا الحكم كان هذا التبديل يتفق والقصد من التشريع كما أن النسخ يتفق والأصل المقرر في الشريعة، وهو التدرج في تشريع الأحكام رعاية لمصالح العباد [1].

[3] انظر: عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية: د. عثمان عبد المنعم عيش، ص 66.

[1] انظر: الوجيز في أصول الفقه: د. عبد الكريم زيدان، ص389.

الخاتمة

أحسب أنه قد تبين من خلال هذه الدراسة، الموثقة المستمدة من مصادرها الأصلية، أن شرع من قبلنا هو دليل من أدلة الأحكام.

صحيح أن بعض العلماء يعتبرونه ليس دليلاً مستقلاً عن القرآن والسنة، إلا أنه ذات اعتبار وقيمة، لما يضفيه هذا الأصل من زيادة معرفة وعلم.

وقد انتهت الدراسة والبحث إلى:

- أن شرع من قبلنا شرع لنا ما أكده نص من القرآن الكريم والسنة الصحيحة.
- أن شرع من قبلنا منه ما هو ثابت ومنه ما نسخه الإسلام.
- أن شرع من قبلنا يُؤخذ من مصادرنا لبعدها عن التحريف والتغيير والتبديل.
- أن الشرائع كان ينسخ بعضها بعضاً.
- أن الشريعة الواحدة كانت تنسخ بعض أحكامها بذاتها.
- أن الإسلام الآن هو المهيمن على الدين كله.
- أن شرع المسلمين والإسلام هو شرع ملائم لكل زمان ومكان.

المراجع

أولاً. الكتب المقدسة والتفاسير:

1. القرآن الكريم.

2. العهد القديم (التوراة) ـ دار الكتاب المقدس ـ قبرص ـ 1998 م.

3. العهد الجديد، (الإنجيل) جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ـ 1996م.

4. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس ـ بيروت ـ 1984م.

5. طنطاوي: محمد سيد – التفسير الوسيط للقرآن الكريم- نهضة مصر ـ القاهرة ـ 1998م.

6. رضا: محمد رشيد – تفسير القرآن الحكيم (المنار) – دار المعرفة ـ بيروت.

7. قطب: سيد – في ظلال القرآن – دار الشروق ـ 1978 م.

ثانيا . كتب السنة والسيرة النبوية:

8. ابن حنبل: أحمد ـ المسند – دار الحديث ـ القاهرة ـ 1995م.

9 . ابن خزيمة: محمد بن إسحاق ـ الصحيح ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الأولى ـ 1994م.

10. ابن ماجه: سنن ابن ماجه – المكتبة العلمية ـ بيروت .

11. البخاري: محمد بن إسماعيل – صحيح البخاري – المكتبة العصرية_ بيروت _1997م .

12. البغوي: شرح السنة – المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ 1983م.

13. الترمذي: محمد بن عيسى – سنن الترمذي – المكتبة السلفية ـ القاهرة ـ 1964م.

14. الذهبي: محمد بن أحمد ـ سير أعلام النبلاء ـ مكتبة الصفا ـ القاهرة ـ الأولى ـ 2003 هـ.

15. السجستاني: أبو داود – سنن أبي داود – الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ـ 1988م.

16. المباركفوري: صفي الرحمن – الرحيق المختوم – دار الوفاء –المنصورة ـ 2001هـ .

17. مسلم: صحيح مسلم – بشرح الإمام النووي ــ دار السلام ـ القاهرة ـ الثالثة ـ 1996م .

ثالثا . كتب اللغة والمعاجم:

18. ابن منظور: لسان العرب – دار الجيل ـ بيروت ـ 1988م.

19. عبد الباقي: محمد فؤاد ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – دار التراث العربي ـ بيروت.

رابعا . كتب الفقه وأصول الفقه:

20. ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام –بيروت.

21. أبو زهرة: محمد – أصول الفقه – دار الفكر العربي ــ القاهرة -1958م.

22. البرديسي: محمد زكريا ــ أصول الفقه – دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة.

23. الجيزاني: محمد بن حسين – معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة – دار ابن الجوزي ــ1422هـ

24. الحصري: أحمد محمد – استنباط الأحكام من النصوص – جامعة قاريونس ــ بنغازي ــ 1978م.

25. خلاف: عبد الوهاب – علم أصول الفقه – دار الحديث ـ القاهرة ـ 2003هـ.

26. الخن: مصطفى سعيد – الكافي الوافي في أصول الفقه الإسلامي – مؤسسة الرسالة –بيروت-2000هـ

27. الأرموي: الإمام محمد – الحاصل من المحصول في أصول الفقه – جامعة قاريونس –بنغازي-1994م

28. الزحيلي: د.وهبة – أصول الفقه الإسلامي – دار الفكر – بيروت ـ 2001هـ

29. زيدان: د.عبد الكريم – الوجيز في أصول الفقه – مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ 1997م.

30. السرخسي: أبي سهل محمد- أصول السرخسي – دار المعرفة ــ بيروت .

31. شعبان: زكي الدين – أصول الفقه الإسلامي – جامعة قاريونس ــ بنغازي ــ 1989م

32. شلبي: د.محمد – أصول الفقه الإسلامي – دار النهضة ــ القاهرة ــ الثانية.

33. القرضاوي: د. يوسف – العبادة في الإسلام – دار الجميع للنشر ــ القاهرة.

34. النبهان: د. محمد فاروق – المدخل الى التشريع الإسلامي – القاهرة.

35. الندوي: أبو الحسن – الأركان الأربعة – دار الفتح ــ القاهرة ــ 1968م.

خامساً. كتب الفكر الإسلامي:

36. حميد: فوزي محمد – عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة – جمعية الدعوة الإسلامية ــ بنغازي ــ 1990م .

37. الخطيب: عبد الكريم – قضية الألوهية بين الدين والفلسفة – مطبعة المدني ــ القاهرة ــ 1962م

38. دراز: د. محمد عبد الله ــ الدين ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ 1969م.

39. شلبي: د. أحمد – مقارنة الأديان (الإسلام) – مكتبة النهضة ــ القاهرة.

40 . الصلابي: د. علي محمد ــ الوسطية في القرآن ــ مكتبة الإيمان ــ المنصورة ــ الأولى ـ 2005هـ

41. طبارة: عفيف عبد الفتاح – روح الدين الإسلامي- دار العلم للملايين ــ بيروت ــ 1974م .

42. الطبري: محمد بن جرير – تاريخ الطبري – دار المعارف ــ القاهرة ــ 1977م.

43. عبد الستار: فتح الله سعد: المنهاج القرآني في التشريع ــ دار الطباعة الإسلامية ـ القاهرة ــ الأولى ـ 1992م.

44. العقاد: محمود عباس ـ حقائق الإسلام ـ دار المعارف ـ مصر.

45. علي: سيد أمير – روح الإسلام – دار مصر – القاهرة _ 1973م

46. عيش: د. عثمان عبد المنعم – عقيدة ختم النبوة بنبوة محمد – مكتبة الأزهر –القاهرة- 1976م.

47. الندوي: أبو الحسن ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ــ دار المعارف ــ مصر ــ السابعة ــ 1988م.

كشف مؤلفات الأستاذ حسني العطار

داعياً الله أن ينفع بها وأن تكون في ميزان حسناته ومن له حق وفضل عليه:

أولاً. الدراسات القرآنية:

١. من آيات الإعجاز في القرآن الكريم (دراسة).

٢. الاستهزاء والسخرية في ضوء القرآن الكريم. (دراسة).

٣. الحوار في القرآن الكريم: دراسة ونموذجاً. (دراسة).

٤. قيم تربوية مستنبطة من قصص سورة الكهف. (دراسة).

5. الرازي ومنهجه في التفسير وموقفه من اليهود. (دراسة).

ثانياً. علوم الحديث ومصطلحه:

٦. قضايا حديثية. (دراسة).

٧. دراسات حديثية تحليلية معاصرة. (دراسة).

٨. قطوف ومختصرات من علم أصول الحديث.

٩. إرشاد الأبرار إلى تخريج أحاديث المختار. (مساق أكاديمي).

١٠. مفتاح كتاب تحفة الأشراف للإمام المزّي

ثالثاً. دراسات في العقيدة والفكر:

١١. يوم القيامة بين التأصيل الديني والعقلي. (دراسة).

١٢. المختصر المفيد لأشراط الساعة وأحداث يوم الوعيد.

13. نظرية الخلافة عند الخوارج. (دراسة).

14. أثر العقيدة الإيمانية على الصحة النفسية. (دراسة).

15. عقيدة المهدي المنتظر عند الشيعة: عرض ونقد. (دراسة)

16. السنن الإلهية: وحركة النهضة الإنسانية – دراسة وعرض. (دراسة).

17. نظرية الفضيلة عند اليونان والمفكرين الإسلاميين. (دراسة).

18. البابية والبهائية: ضلال وإضلال. (دراسة).

19. شرع من قبلنا (دراسة).
20. الوالدان: بين البر والعقوق. (دراسة).
21. نظرات سريعة في كتاب " قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة " (اختصار).
22. مختصر لكتاب "التوسل أنواعه وأحكامه" للشيخ ناصر الدين الألباني.
23. مختصر لكتاب "الروح" لابن قيم الجوزية.
24. تلخيص كتاب شفاء العليل في القضاء والقدر لابن قيم.
25. مختصر لكتاب "منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد " لعثمان علي حسن.
26. العقائد اليهودية فساد وإفساد دراسة ونقض. (دراسة).
27. العقائد النصرانية ضلال وإضلال دراسة ونقض. (دراسة).
28. دراسة وتحليل لسفر أخبار الأيام الثاني. (دراسة).
29. نظرية الإمامة عند الشيعة. (دراسة).
30. الفرق بين الجهاد والإرهاب. (دراسة).
31. أهم أسباب تخلف العرب والمسلمين. (دراسة).
32. الدكتور مصطفى محمود: آراؤه الاعتقادية وموقفه من المذاهب الفكرية والملل المعاصرة (رسالة ماجستير).
33. مصطفى محمود حياته وآراؤه الاعتقادية. (دراسة).
34. مصطفى محمود حياته وموقفه من المذاهب الفكرية المعاصرة. (دراسة).
35. رمضانيات مقالات وذكريات. (مجموعة مقالات).
36. عطاريات: مقالات في الدين والحياة. (مجموعة مقالات).
37. قيمنا الأخلاقية بين الأهمية والحاجة. (دراسة). مطبوع
38. الأخلاق بين الادعاء والالتزام. (دراسة). مطبوع
39. قضايا دينية وفكرية. مقالات.
40. فيس بوك صائم.
41. في عيونهم.

رابعاً. دراسات فلسطينية:

42. مدينة القدس، والمسجد الأقصى: ماضٍ مجيد ومستقبل موعود. (دراسة).
43. فلسطين: نقض مزاعم الكتاب المقدس. (دراسة).
44. فضائل فلسطين وبيت المقدس في الكتاب والسنة. (دراسة).
45. القضية الفلسطينية: رؤية إسلامية. (دراسة).
46. القدس بين التهديد والتهويد. (محاضرات ومقالات).
47. مدينة القدس أخطار لا تتوقف. محاضرة

خامساً. دراسات أدبية:

48. عبد الرحمن بارود: شاعر المقاومة ـ (دراسة نقدية).
49. عاشق فلسطين: عبد الكريم الكرمي (دراسة).
50. الشيخ رجب العطار ذاكرة أمة. (مذكرات). مطبوع
51. الشيخ رجب العطار مجاهداً. (دراسة). مطبوع
52. طوبى للغرباء: قصة حياة الحاج موسى برهوم. مقالات.
53. صعوبة المطالب في بلاد الله غالب. رواية. مطبوع
54. شخصيات عرفتهم. مقالات.
55. العطار في بلاد المختار. رواية. مطبوع
56. حكاية مواطن غزاوي. حكاية. مطبوع
57. بين الذكريات. ثلاثة أجزاء مقالات.
58. أمي سلام عليك في الخالدين. مطبوع
59. قصص وحكايات.
60. شاميات. حكاية من حلقات مطبوع
61. أبي قصة حياة. مطبوع

سادساً. دراسات فقهية:

62. الدية في الشريعة الإسلامية (دراسة فقهية).

63. الوديعة المصرفية: دراسة فقهية – اقتصادية. (دراسة).
64. الانتخابات وأحكامها في الإسلام. (دراسة). مطبوع
65. حقوق المرأة المالية في الإسلام. (دراسة فقهية).
66. دية المرأة المسلمة في الشريعة الإسلامية. (دراسة فقهية).
67. الخنزير: أخطاره وأحكامه (دراسة مقارنة).
68. السماحة الإسلامية في الضرورة الشرعية. (دراسة).
69. قضايا اجتماعية. مقالات
70. الصوم وتهذيب النفس. دراسة.
71. تلخيص كتاب الاختلافات العلمية.
72. كورونا بين المحنة والمنحة. مطبوع
73. لو سمحت لحظة من فضلك.

سابعاً. في الفكر السياسي:

74. إسرائيليات.
75. مستقبل الصراع الإسلامي الصهيوني من خلال كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون". (دراسة).
76. الماسونية: أخطر الجمعيات السرية. (دراسة)
77. فلسطينيات مقالات في الوطن والقضية. مجموعة مقالات.
78. مصر وقطاع غزة الأرض والسكان. مقالات
79. انعكاسات حرب ٢٠٠٨م على المجتمع الفلسطيني والمجتمع الإسرائيلي. (دراسة تحليلية).
80. مصر التي في خاطري. (مقالات ومنشورات)
81. أوراق عربية. (مقالات).
82. تلخيص كتاب د. موسى أبو مرزوق مشوار حياة.
83. الجزيرة العربية قبل الإسلام: الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية. (دراسة)

84. أوسلو وخيبة الأمل الفلسطينية. مقالات.
85. أنا والسلطة والوطن. مقالات.
86. ثورات الربيع العربي وحكم الخروج على الحكام (دراسة).
87. هموم كاتب ما بعد الهزيمة.

كتب تحت الإنجاز:

1. الشوق والحنين. سيرة ذاتية.
2. أنا والمسجد الأقصى.
3. رثائيات.

المحتويات


تم بحمد الله